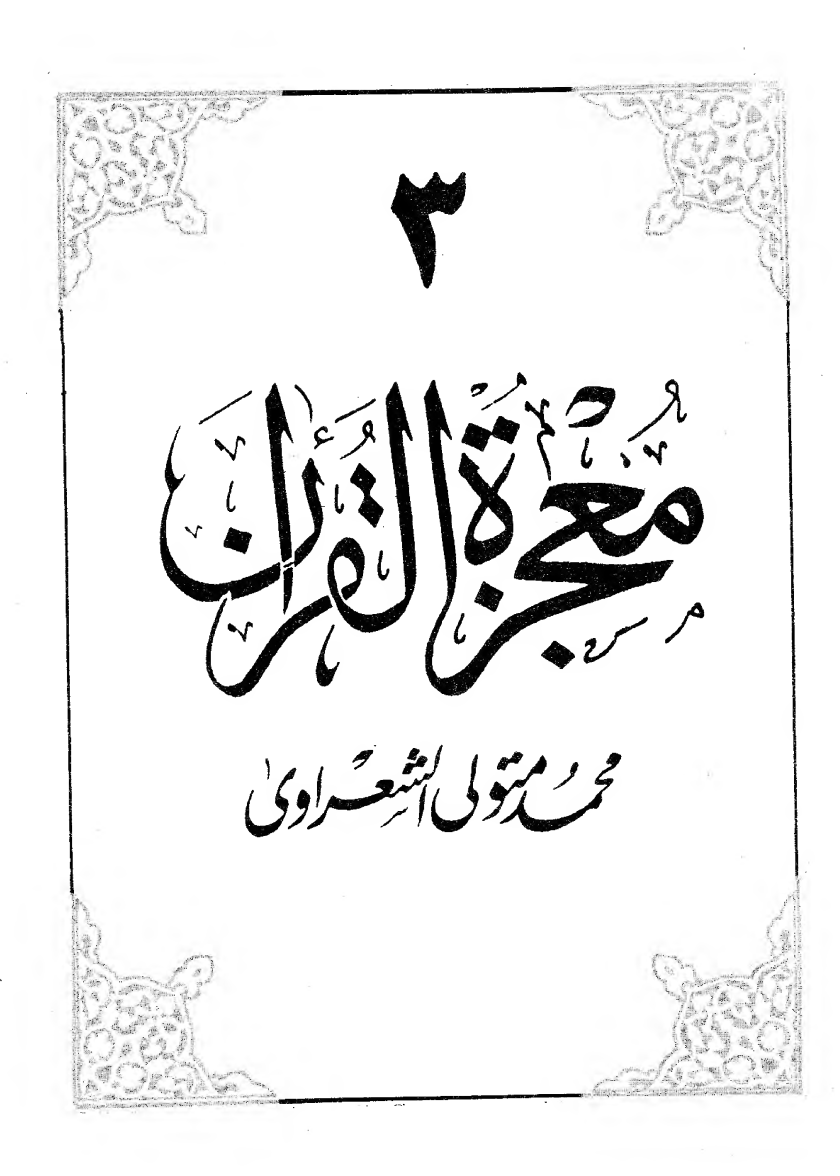


٣
معجزة القرآن
محمد متولي الشعراوي

أخبار اليوم

ادارة الكتب والمكتبات

الفصل الأول

وحدة الكون.. وقدرة الله

وحدة الكون وقدرة الله

الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بوحدة الكون وقدرة الخالق . . وحدة الكون فى قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

سورة البقرة آية ٩٢

وقدرة الخلق فى الإعجاز الذى نراه فى كل خلق من مخلوقات الله . . سر الحياة المغلق . . مهما تقدم الإنسان فى العلم . . وتطور عقله وأعطاه الله وكشف له عن أسرار الحياة المادية فى الكون .

وبعض الناس يأتى إلى الآية الكريمة « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ليجادل فيها . . فهناك أشياء فى نظر بعض الناس قد قام البشر بالمساهمة فيها ، مثل الزرع . . مثلا . . والاختراعات الجديدة التى دخلت فى خدمة الإنسان كقدرته على الطيران مثلا . . أو الاستخدامات الحديثة للتليفزيون والاذاعة إلى آخر ذلك . . بعض الناس يقول إن هذا من عمل البشر . . فهذا من اختراع أو صنع العالم الفلانى . . وذلك من انتاج أبحاث أجريت إلى آخر ما يقال .

ولكى نبحث هذا الموضوع من أساسه نقول إن الأرض مرتبة هكذا . . جماد . . فنبات . . فحيوان . . ثم الإنسان . . الجماد . . فيأتى نمو فيكون نباتا . . ويأتى حس فيكون حيوانا . . فيأتى فكر فيختار بين البديلين فيكون إنسانا . . هذه هى كل الأجناس المرئية فى الأرض أو التى يراها الإنسان أو يحس بها . . ولسنا بصدد الحديث عن الأجناس غير المرئية فذلك يخرج عن موضوعنا . . كل الأجناس المرئية من جماد ونبات وحيوان والإنسان فى غير ما يفكر فيه ويختاره بإرادته الحرة بين البديلين .

كل هذه الأجناس بما فيها بما يدخل فى الإنسان نفسه . . ويعمل بحركة لا ارادية لا دخل لإرادة البشر فيها . . كالتنفس مثلا . . ونبضات القلب . . والدورة الدموية . . وعمل الجهاز الهضمى إلى آخر هذه الأشياء . . لا تدخل إرادة الإنسان فى عملها . . فأنت لا تستطيع أن تقول لقلبك انبض فينبض . . أو توقف عن العمل فيتوقف . . وأنت بإرادتك لا تستطيع إذا توقف القلب عن

العمل أن تعيده مرة أخرى أو إذا توقفت الرئتان عن التنفس بأن تجعلهما تتنفسان . . أو إذا توقفت المعدة عن هضم الطعام . . أن تصدر إليها تعليماتك فتعود مرة أخرى إلى عملها . . كل ذلك خارج عن الارادة البشرية . . أو عملية الاختيار التى اختص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان . . فى افعل ولا تفعل . . وأعطاه فيها حرية الاختيار بين البدائل المختلفة .

الجماد والنبات والحيوان . . والأجزاء التى تدخل ضمن جسد الإنسان ولا تخضع لإرادة ومنها خاصية النمو مثلا . . فهى غير خاضعة للارادة البشرية . . كل هذه الأشياء منضبطة انضباطا قسريا قهريا لا دخل لأحد فيها . . فالجماد مضبوط ضبطا مقصورا على مهمته . . والنبات مضبوط بحيث يؤدى مهمته . . فأنت تزرع البذرة فى الأرض فتتفاعل وتنبت لها جذور وساق . . دون أن يكون لك أنت أى دخل فيها . . بل إنك تستطيع أن تشاهد هذه العملية من خلال أنبوبة اختبار تأتى بها . . وتضع فيها البذرة فترى كيف تنمو بذاتيتها بما أودعه الله فيها من انسجام مع مهمتها فى الكون . . فتجد أن البذرة رغم أنها توضع فى أرض واحدة وتسقى من ماء واحد . . إلا أن كل نبات منها يمتص من الأرض ما يجعله صالحا لمهمته . . فتختلف الألوان . . ويختلف المذاق . . رغم أن الأرض واحدة . . والماء واحد .

هذا هو انسجام النبات مع مهمته فى الحياة . . وقد وضع الله سبحانه وتعالى فى هذا النبات خاصية الاختيار من مواد الأرض بما يلائمه ليتم انسجامه مع الكون ومع مهمته . . والحيوان أيضا منسجم مع مهمته فى الكون . . سواء ذلك الذى أخضعه الله سبحانه وتعالى وسخره لخدمة البشر . . أو ذلك الذى لم يسخر ولم يخضع لارادة البشر كالحيوانات المفترسة مثلا . . كل هؤلاء فى انسجام مع مهمتهم فى الكون .

● **الإنسان . . والقدرة**

يأتى بعد ذلك الإنسان . . الأجزاء غير الخاضعة لاختيار الإنسان منسجمة مع مهمتها فى الكون . . فالتنفس مثلا يتم بطريقة تلقائية وبلا صعوبة . . وكل

إنسان يجد حاجته من الهواء دون تعب أو مجهود . . والقلب ينبض دون أن تحس به . . بل إن القلب والتنفس والجهاز الهضمى وكل الأجزاء غير الخاضعة لارادتك . . تعمل وأنت مستيقظ . . وتعمل وأنت نائم . . وتعمل دون أن تحس بها فى انسجام كامل . . إلى أن تأتى أنت وتفسد مهمتها كأن ترهق المعدة بالطعام . . أو القلب بالمجهود أو تدخن مثلا بشراهة بما يفسد رئتيك . . هذا الفساد الذى جاء . . أنت الذى أدخلته بإرادتك . . وسوء استغلالك لنعم الله

التى أنعم بها عليك . . وهكذا الفساد فى الأرض جميعا . . يأتى من تدخل هوى النفس ليحاول الإنسان أن يغير ما فى الكون حتى يخضع لهواه . . هنا تبدأ عملية الإفساد . . فكل إنسان فى الأرض مرجعه إلى هوى النفس البشرية وإذا أردنا أن نصلح عدنا إلى القوانين والقواعد التى وضعها من لا هوى له . . وهو الله سبحانه وتعالى . . إذا فعلنا ذلك يصلح كل شىء . .

ولكن الإنسان يريد أن يمضى كل شىء على هواه . . وأن يضع موازين الحق لا على أساس الحق نفسه . . ولكن على أساس ما يشتهى ويريد . . ومن هنا نشأت التعاسة وجاء الشقاء إلى الأرض . . فلو أخذ كل إنسان حاجته فقط ما وجد جائع ولا فقير . . ولكن بعض الناس يأخذ أكثر من حاجته لا ليومه فقط . . ولكن لحياته كلها . . محاولا بذلك أن يصل إلى ما يسميه الأمان . . بينما لو عرف الحقيقة لعلم أن الأمان بيد الله لأن الغد بيد الله . . وما تحرص عليه أنت اليوم . . قد يذهبه الله إذا شاء غدا . . وما ليس معك اليوم . . قد ينعم الله به عليك بعد ساعات . . إذن الضمان البشرى فى حقيقته يجب أن يكون متصلا بالله سبحانه وتعالى . . وليس بماديات الحياة . . ذلك أن قدرة الله هى التى تعطى وتمنع . . وتنعم وتذهب النعم .

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة :

﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

سورة البقرة آية ٢٩

وخلق الأرض والسموات وكل ما فيها هو لله سبحانه وتعالى . . وهذه قضية

لا جدال فيها . . فلم يأت أحد ويدعى أنه خلق الأرض . . أو خلق السموات . . أو خلق الشمس والقمر والنجوم . . أو خلق ما على الأرض من حياة . . ولو أن هذا الخلق لغير الله سبحانه وتعالى لوجدنا من يجىء ويقول أنا خلقت . . ولكن أحدا لم يدع ذلك حتى ولو مجرد ادعاء . . ومن هنا فإن قضية الخلق ثابتة لله سبحانه وتعالى بلا جدال . . وبلا مدعين . . على أن هناك خلقا بالقدرة . . وخلقا بالقوة . . الخلق بالقدرة هو ما وضعه الله سبحانه وتعالى فى الأرض منذ بداية الخلق . . وما وضعه من قوانين لاستمرار هذا الخلق . . فأنت حين تجىء وتدعى انك أنت الذى زرعت هذه النخلة . . نقول لك من أين جئت بالبذرة أو النواة التى زرعتها ؟ . . فتقول من نخلة كانت مزروعة . . ومن أين أتت بذرة أو نواة هذه النخلة التى كانت مزروعة ؟ . . فتقول من النخلة التى سبقتها . . وهكذا حتى تصل إلى الخلق الأول . . فكأن هذه البذرة التى وضعتها فى الأرض هى ثمرة البذرة الأولى التى خلقها الله سبحانه وتعالى ـ فقدرة الله هى التى أوجدت هذا . . رغم أنك تكون قد حرثت الأرض لتضع البذرة . . مهمتك كلها فى الزرع هى الحرث فقط . . أما البذرة نفسها فهى من الخلق الأولى الذى تكرر حتى وصل إليك .

قد يقول بعض الناس إن هناك أصنافا جديدة . . تأتى من تطعيم بذرة ببذرة . . أو من أبحاث معينة على البذرة نفسها . . تطعيم بذرة ببذرة هو من خلق الله للبذرة الأولى والثانية . . وكل ما فعلته أنت . . هو أن الله هداك إلى هذه الطريقة . . ولكنك لم تخلق شيئا جديدا . . وتحسين البذرة بما تستخدمه من مواد فأنت أيضا تستخدم ما خلقه الله دون أن تخلق شيئا جديدا .

● والعلم الحديث

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاختراعات الحديثة نجد أنها اكتشافات لقوانين الكون . . فالذى اخترع الطائرة لم يخلق الغلاف الجوى الذى تطير فيه . . ولا خلق المادة التى تصنع منها الطائرة . . وإنما خلق بقوة الله سبحانه وتعالى الذى أعطاك المادة وأعطاك القوانين التى تعمل بها . . ثم أعطاك القوة التى

تجعلك تكتشف كل هذه الأشياء . . وما يقال عن الطائرة يقال عن باقى الاختراعات . . فلم يخلق إنسان مادة . . ولا خلق قوانين فى الكون . . وإنما هو كشف لخلق الله سبحانه وتعالى فى كونه بما يريد سبحانه وتعالى أن يكشفه لخلقه من أسرار الابداع فى الكون . . إذن فقول الله سبحانه « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » ينطبق على ما كان موجودا قبل نزول القرآن . . ووقت نزول القرآن . . وبعد نزول القرآن إلى أن تقوم الساعة . . وكل ادعاء بأن هناك إنسانا خلق شيئا هو ادعاء غير صحيح . . وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ينبهنا الله سبحانه وتعالى إلى أنه خلق مظاهر الكون الثابتة الرتيبة التى يحسب الإنسان أنها لا تتغير كالشمس والقمر والأرض والنجوم . . كل هذه الآيات إنما هى لحياة الإنسان على الأرض . . فمتى ذهبت هذه الحياة . . وجاءت الساعة تغيرت الأرض والسماء والنجوم وكل ما حولها . . وانقلبت الحياة كلها من حياة تستخدم فيها الأسباب . . إلى حياة ينعم الله فيها على عباده دون أسباب . . فتنفعل الأشياء لك بمجرد أن تأتى إلى خاطرك . . فإذا تمنيت الشىء وجدته أمامك بقدرات الله وليس بقدراتك أنت .

ووحدة الكون . . تنبع من قدرة الخالق سبحانه وتعالى . . والله يريد أن يذكرنا دائما بقدرته . . ولذلك وضع فى الكون آيات تذكرنا بهذه القدرة . . وأبقى فيه مع الأسباب طلاقة القدرة حتى لا نعبد الأسباب . . وأرسل لنا الرسل لنتذكر أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقنا . . واننا ملاقوه . . وان بدء الحياة من الله والحياة تعود لله سبحانه وتعالى . . وان الله ينصر الذين آمنوا فى الحياة الدنيا والآخرة .

وقبل أن نتحدث عن قدرة الله سبحانه وتعالى وكيف يذكرنا بها نريد أن نقف وقفة صغيرة هى موضوع جدل كبير بين المستشرقين . . ذلك هو تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالملائكة فى غزوة بدر . . بعض المستشرقين يثير هذا الموضوع على أساس أن النتيجة لا تتناسب مع حجم الحدث نفسه . . والمعروف أن الملك الواحد له قدرة وقوة من الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يدمر بها مدينة

بأكملها . . فكيف يمد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذا العدد من الملائكة فى معركة محدودة كمعركة بدر ، عدد القتلى من الكفار فيها يزيد قليلا على سبعين . . وهل يتناسب هذا العدد مع من قتله المسلمون ومن قتلهم الملائكة . . نقول لهم . . إنكم لم تفهموا الحكمة من تأييد الملائكة للمسلمين فى هذه الغزوة . . فالذى لاشك فيه أن الملائكة ثبتوا المسلمين على القتال لأن قريشا كانت لها هيبة كبيرة بين القبائل . . وكان هذا التثبيت عاملا حاسما فى النصر . . ولكن الحدث نفسه من الله سبحانه وتعالى العليم بالغيب وبما هو قادم . . يتناسب مع النتيجة . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعلم أنه من أصلاب بعض هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا المسلمين فى بدر سيخرج من يدافع عن دين الله . . ويقاتل فى سبيله . . ويكون نصيرا ونصرا للإسلام . . ولكن المقصود بالقضاء عليهم فى غزوة بدر هم أئمة الكفر الذين ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون . . والذين نستطيع أن نشبههم الآن بمجرمى الحرب . . أى الذين لا يكتفون بقتال المسلمين بل يحرضون غيرهم ويدفعونهم إلى محاربة دين الله . . هؤلاء علم الله سلفا أنهم أعداء دينه . . وإنهم سيحاربون الله ورسوله ما بقى فيهم نفس يتردد . . ولذلك كان القضاء على هؤلاء دون غيرهم من الذين جاءوا لمقاتلة

المسلمين فى غزوة بدر إما مدفوعين أو بحمية الجاهلية . . فإذا قلنا إن الملائكة قد ثبتوا المؤمنين بأنهم معهم يكون ذلك صحيحا . . وإذا قلنا أن الملائكة شاركوا فعلا فى المعركة يكون بأنهم قد قتلوا أئمة الكفر الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين . . وإذا كان الحدث هنا لا يتناسب مع القدرة . . فإنه يتناسب مع الحكمة والهدف . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يهلك الكفار جميعا . . بل لو أراد أن يهلك من فى الأرض جميعا لأهلكهم فى لحظة بكلمة « كن » . . ولكن الهدف هنا لم يكن الكفار على اطلاقهم لأن الله يعلم أنهم سيهتدون وسيكونون من الداعين لدينه . . المجاهدين فى سبيله .

تبقى بعد ذلك عدة أسئلة . . إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم يهلك الله سبحانه وتعالى أئمة الكفر بلا قتال . . وهو قادر على ذلك . . والجواب سهل

ويسير . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن ينصر دينه على أيدى المؤمنين من عباده ولا يريد أن ينصر دينه بطلاقة قدرته . . وإلا لكانت طلاقة القدرة هى الأساس . . ولما احتاج الله سبحانه وتعالى لأن يرسل رسولا أو نبيا . . فالله يريد منا أن نأتيه طوعا واختيارا . . أى نأتيه بإرادتنا الحرة طائعين ونحن فى نفس الوقت نملك الخيار فى أن نفعل ذلك أو لا نفعله . . فإذا فعلنا وجئنا طائعين مؤمنين فإن الله قد كتب على نفسه أن ينصر الذين آمنوا ويؤيدهم ويدافع عنهم ويثبتهم . . وهو يريد هنا أن يثبت الذين آمنوا ويعطيهم ثقة فى النفس وقدرة تعدهم للمهام القادمة من فتح مكة والجزيرة العربية وباقى أنحاء العالم . . ولذلك فهو يثبتهم بالملائكة . . ويخبرهم بذلك حتى إذا جاء قتال جديد . . دخل المؤمنون المعركة وكلهم ثقة فى أن الله سبحانه وتعالى معهم . . وإنه سينصرهم مهما كان عدوهم . . فزالت الخشية من قلوبهم . . وملأتهم شجاعة الإيمان . . وصلابة الإيمان . . وبذلك يكونون قد أعدوا الاعداد الصحيح والسليم لكل ما يكلفهم به الله سبحانه وتعالى من جهاد قادم . . ويأتى القرآن وهو كلام الله . . الذى لا يتبدل ولا يتغير إلى يوم القيامة ـ يأتى ليذكر هذه الواقعة حتى يعرف الذين لم يشهدوا معركة بدر ، ان الله مع المؤمنين دائما وإنه يمدهم بالملائكة ليثبتوهم وينصروهم . . وهكذا يحس المؤمنون حتى قيام الساعة بتأييد الله ونصرته لهم . . وتبقى هذه الروح الإيمانية . . وتحول أولئك المجاهدين إلى رجال أشداء لا تدخل قلوبهم الرهبة من أعداء دين الله ولا يخافون الهزيمة مهما كانت قسوة عدوهم .

● **الملائكة وغزوة بدر**

ولأن الله سبحانه وتعالى يشرع للبشر فى الأرض . . فهو يأتى بالنظرية والتطبيق معا . . وكانت النظرية هى ما أورده الله سبحانه وتعالى فى كتابه . . وتطبيقها هو ما حدث فى بدر . . فالتثبيت بالملائكة له هدف إيمانى باق حتى قيام الساعة . . أما الخسائر فى المعركة فهى بالنسبة للكفار فهم أئمة الكفر الذين يحرضون الناس والقبائل على قتال المؤمنين . . وهكذا نجد أن الآية منسجمة

تماما مع الهدف الإيمانى وهو تأييد الله للمؤمنين .. والهدف الواقعى وهو التطبيق العملى لهذا التأييد بواقع حدث فعلا .. والهدف الغيبى وهو أن من بين هؤلاء الذين دفعوا لمحاربة المسلمين فى بدر .. من سيدخل الإسلام .. ومن سيحارب فى سبيل الله .. ومن سينصر دين الله .

هذه لمحة سريعة للرد على بعض الذين يحاولون النيل من دين الله بالتشكيك فى القرآن .. نأتى بعد ذلك إلى تذكير الله سبحانه وتعالى لنا بقدرته دائما .. وهذا التذكير هو رحمة بخلق الله .. ذلك أنه يبعدهم عن العذاب .. ويعطيهم الحياة الكريمة فى الأرض .. وفى هذا سأذكر بعض خواطرى عن سورة « الطارق » التى هى تتناول ـ كباقى سور القرآن ـ التذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى .. وبأنه لا شيء فى هذا الكون يخرج عن هذه القدرة .. يقول الله سبحانه وتعالى فى السورة الكريمة

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ ﴾

الطارق آية ١

والسماء معناها : كل ما علاك وأظلك ، وكل ما يعلو الإنسان يطلق عليه اسم السماء .. وقد تحدث العلماء فى أول الأمر عن السماء على أساس أنها العلو المباشر فوقهم .. وكلما اهتدى كشفهم إلى ارتفاع جديد فى هذا العلو أطلقوا عليه اسم السماء .. حتى تم اكتشاف سبعة كواكب تدور حول الشمس .. فقالوا إنها السموات السبع .. ثم كشفت كواكب أخرى .. فيظل هذا التفسير لأنها وصلت اليوم إلى عشرة .

والحقيقة إنه ما من تفسير أخذ يضيق المسافة كالتفسير العلمى للسماء والله سبحانه وتعالى قال عن بناء السماء .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَـٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾

سورة الذاريات آية ٤٧

أى انه أعطى صفة السعة لبناء السماء . . ولقد سبق أن تحدثنا عن قدرة الله سبحانه وتعالى وقدرة البشر . . وقلنا إن الفارق بين القدرتين هائل . . بحيث لا مقارنة . . وان كل شيء تعتقد أنه وصف حقيقى لصفة من صفات الله فهو ليس كذلك . . لأن الله ليس كمثله شيء . . فإذا وصلت إلى شيء . . وأردت أن تضع لله صفة مثله نقول إنك قد أخطأت . . لأن الله ليس كمثله شيء . . فإذا قال الله سبحانه وتعالى « وإنا لموسعون » . . فمعنى ذلك أن البعد لا نهائى . . لا يمكن أن يصل إليه عقلك المحدود . . فكل قول بأن الكواكب والنجوم التى نراها هى السموات قول غير صحيح ذلك أن الله حين تكلم عن الكواكب قال :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾

سورة الصافات آية ٦

فهذه الأجرام التى نرصدها هى فى السماء الدنيا . . وبقيت بعد ذلك السموات سقفا محفوظا كما أرادها الله سبحانه وتعالى . . وسعة لا نهائية لا تدخل تحت ادراك العقل البشرى . . فحين يقسم الله بها يجب أن نعلم أنها شيء هائل فوق قدرة كل العقول . . وإن بناءها وحفظها من معجزات الله سبحانه وتعالى .

● ما هو الطارق ؟

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول « والسماء والطارق » . . ما معنى كلمة الطارق ولماذا يقسم الله بهذه الكلمة . . ان الرد على ذلك يأتى فى الآية التى تأتى بعدها . . « وما أدراك ما الطارق » . . كأنه لا يمكن لعقولنا أن تعرف المعنى الذى يريده الله سبحانه وتعالى من كلمة « الطارق » . . وانه سيعطينا هذا المعنى . . ولنقف عند هذه النقطة قليلا . . طارق اسم فاعل من طرق . . وطرق معناها ضرب بشدة ليحدث صوتا ننتبه إليه . . والطارق أيضا هو السائر بالليل . . ذلك أن الليل سكون وصوت الأقدام يسمع فيه ولا يسمع بالنهار وسط الحركة والضجيج . . وهناك ما يطرق الفكر ليتملك الإنسان . . كل هذه

المعانى تلتقى فى شىء واحد .. هو أن هناك شيئا حسيا .. أو ماديا .. أو نفسيا .. ينبهك بما يشبه الطرق .. فيجعلك تتنبه إلى ما لم تكن تفكر فيه أو مستعدا له .. وذلك يأتى من خارج نفسك وليس من داخلها ولكنه يؤثر فى هذه النفس .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾

الطارق الآيتان ٢ - ٣

والنجم الثاقب هو الذى يرسل شعاعه بالليل لتهتدى به .. أى أنه يثقب الظلام ليريك الطريق .. ومادام الله قد أحل لنا السعى بالليل والنهار .. فقد جعل طرق الهداية فى كل منهما فجعل الشمس والنور للنهار .. والنجوم والقمر لليل .. كل وقت له هداية .. فإذا استيقظت فى الصباح وجدت الدنيا يملؤها النور .. وإذا سعيت فى الليل كان القمر والنجوم هاديا لك .. فالله لا يتركك وحدك بلا هداية .. وتمضى السورة الكريمة :

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾

الطارق آية ٤

ما هى العلاقة بين السماء والطارق .. والنجم الثاقب .. والحفظة على النفس .. لو نظرنا نظرة سطحية لقلنا لا علاقة بين هذا كله .. ولكنه فى الحقيقة مرتبط ببعضه ليذكرك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. فالله يريد أن يلفتنا إلى قدرته .. فقسمه بالسماء هو قسم القادر الذى بنى السماء بهذه العظمة من الاتساع وحفظها .. فقدرة الله سبحانه وتعالى فى خلق السماء يعرفها كل من يدرس علم الفلك .. وهو ينظر إلى هذا البعد اللانهائى من ملايين السنوات الضوئية دون أن يصل إلى السماء الأولى .

● **وبالليل أيضا**

ولكن السموات السبع غيب عنا محفوظ من الله سبحانه وتعالى . . وإن كنا نستطيع أن ندرك عظمة القدرة الإلهية فيه . . فإنها ليست شيئا محسوسا فى حياتنا . . ولكن قدرة الله فى الأرض ومن حولنا يجب أن تطرق عقولنا فى كل ثانية . . لأننا أينما ننظر إلى شجرة . . إلى زهرة . . إلى جبل . . إلى البحار . . إلى مخلوقات الله فى كل مكان . . هناك فى كل شىء آية تطرق عقولنا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى . . هذه الآيات التى تنبه العقل إلى عظمة الله وقدرته هى أمامنا فى حياتنا كلها . . وهى كالطرق الذى ينبهنا دائما إلى القدرة الالهية . .

والله سبحانه وتعالى حين يذكر بعد ذلك « **النجم الثاقب** » . . أى الذى يثقب الليل بنوره فإنه يريد أن ينبهنا إلى أن القدرة معنا . . سواء كنا مع الناس أو كنا فى مكان بعيد سحيق تستره الظلمة من كل مكان . . فالليل ستر للإنسان يعتقد فيه أن أحدا لا يراه . . لأن الظلام يخفى . . والسكون يضلل . . والناس فى الليل ينامون فلا يوجد أحد إلا أقل القليل . . ولذلك فإننا يجب أن نعلم أنه رغم هذا كله فإن هناك نورا يأتى ليثقب أى ظلام ويعرف كل سر . . حتى إذا غاب الناس عن الوجود وكنت أنت وحدك المستيقظ . . تلك هى قدرة الله وعلمه . . أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بهذا القسم أنه لا شىء يسترنا عنه . . نهارا أو ليلا فى أى مكان كنا فيه . . فإذا اعتقدنا أن النهار ونوره فيه رقابة من البشر . . وأن حركة الحياة قد تمنعنا من شر نريد أن نرتكبه . . فلنعلم أن الظلام لا يحمينا من الله . . ولنعلم أن هناك من يثقب الظلام . . ويعرف الخبايا التى تدور فى الليل . . فالله سبحانه وتعالى قدرته بلا حدود . . قد يقربها إلى أذهاننا عظمة السماء وسعتها وسر بنيانها . . والله يرانا . . سواء أضاء لنا الكون أو أظلم . . كنا بمفردنا أو كنا مع الناس . . هذه القدرة لابد أن تطرق أذهاننا باستمرار وتذكرنا كلما أردنا أن نقوم بمعصية أن الله يسمع ويرى . . وأننا لا نغيب عن قدرته أبدا .

ثم يذكرنا الله سبحانه وتعالى بأن ما نفعله لا يعلمه الله فقط . . ولكنه يسجله علينا . . فكل نفس عليها حافظ . . وكل شيء محفوظ عنده . . وكل صغيرة وكبيرة تحسب على الإنسان بحيث يذهل الناس يوم القيامة من دقة الحساب . . ويقول الكفار :

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

الكهف آية ٤٩

القدرة موجودة بالليل والنهار . . قادرة على أن تثقب كل ستر . . وهناك من يكتب ما لك وما عليك . . ما لك عند الله . . وما عليك مما سيحاسبك عليه الله . . فالإنسان فى كل كلمة يقولها . . وفى كل عمل يأتيه . . هو يتعامل مع الله سبحانه وتعالى . . فإن ظلم أحدا من عباده . . فالله يقتص للمظلوم . .

وإذا أحسن لأحد من عباده فالله يجزى المحسن . . وإذا أخذ أحد مالا حراما فالله يحاسبه . . فى كل عمل أنت تتعامل مع الله سبحانه وتعالى . . ولا تحسب أنك تستطيع أن تخدعه . . لأنك فى هذه الحالة تخدع نفسك . . فإذا أنت تظاهرت بشيء وأخفيت قصدك الحقيقى . . فتذكر أن قدرة الله سبحانه وتعالى تصل إلى ما فى داخلك وتحاسبك عليه . . وعدل الله سبحانه وتعالى شاء أن تكون قوته مع الضعيف ضد القوى . . ومع المظلوم ضد الظالم حتى يكون هناك تكافؤ فى الفرصة . . وتعادل فى القوة . . يضع الميزان للحياة فى الأرض . . فلو أن الله كان مع القوى ضد الضعيف . . ومع الظالم ضد المظلوم لفسدت الحياة . . ولاستشرى الظلم فى الأرض . . ولأصبح الناس أسيادا وعبيدا . . ولزاد القوى قوة وزاد الظالم ظلما . . ولكن قدرة الله تأتى للقوى لتقول له إذا غرتك قوتك . . فتذكر أننى مع الضعيف ولا تغتر بنفسك ولا تمض بقوتك تفسد فى الأرض . . فإن القوى الحقيقى الذى لا يغلب هو الله سبحانه وتعالى وهو مع

الضعيف ضدك فاحذره . . وتذكر جيدا واجعل هذا يطرق فكرك كلما أقدمت على عمل يغضب الله . . فإذا طرقت قدرة الله عقلك فستتردد . . وربما توقفت إذا دخل الإيمان إلى قلبك لأنك ترى مع ذلك المغلوب على أمره . . قدرة الله . . التى هى أقدر منك بملايين المرات . .

وفى الحياة أمثلة كثيرة لقدرة الله سبحانه وتعالى . . إنسان تراه فى قمة السلطان والجاه والقوة . . وفى لحظة واحدة . . يتغير الموقف كله . . ويجد هذا الجبار نفسه فى السجن لا حول له ولا قوة . . قد يستجدى حارسه كوب ماء . . وقد كان قبل ذلك بساعات يحيط به مئات الحراس يتمنون اشارة من يده . . تلك عبرة من عبر الحياة وضعها الله سبحانه وتعالى كما وضع اذلال الجبارين فى الأرض . . ليذكرنا أن الله مع الضعيف وانه لا قدرة إلا قدرة الله . .

والله سبحانه وتعالى لا يحب أحدا إلا لعمله . . ولا يكره أحدا إلا لظلمه . . وبذلك يكون عدل الله سبحانه وتعالى تاما بين البشر . . وقدرة الله عندما تطرق العقل دائما . . تذكرنا بهذه الحقيقة . . تقينا من كل شر ننويه . . ولنعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعطى . . وأن كل قدرات البشر تتضاءل بل تكاد تنمحى أمام قدرة الله . . والله الذى يعطى الرزق لبلايين البشر على الأرض . . قادر على أن يعطى المؤمن ما يريد ويشتهى . . والله الذى ينجى ملايين الناس كل يوم من كروب وأزمات . . ويأخذ بيدهم بعيدا عن كل سوء . . قادر على أن يفرج كرب المؤمن وينجيه من كل سوء . . والمهم أن يعرف الإنسان أن كل شيء مكتوب ومحفوظ فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله فى الآخرة . . وهذه وقاية للنفس البشرية من أن تظلم وتطغى . .

● **والله يحفظ**

على أنه بجانب أن الكرام الحافظين يسجلون على الإنسان أعماله فإنهم يحفظون المؤمنين من شرور قد لا تستطيع القوة البشرية أن تردها . . فهناك أشياء فى كثير من الأحيان تحدث لك . . فإذا سألت أى شخص من الذين وقعت لهم

هذه الأشياء وكيف نجوت يقول لك لا أعلم . . لولا فضل الله ما استطعت أن أنجو . . ذلك أن قوة البشر المادية وقدرته المحدودة عاجزة عن دفع هذا الضرر . . ولذلك فهو لا يستطيع أن ينسب الفضل إلى نفسه . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا . . فهو يحفظهم من أشياء وشرور قد تدبر لهم أحيانا دون أن يعلموا بها . . والحفظ هنا يكون بقدرة الله وقوته .

ثم تستطرد الآية الكريمة :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾

الطارق آية ٥ ـ ٧

وهنا يجب أن ندقق فى المعنى . . الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى شيء هام حتى لا يأخذنا غرورنا فنحسب أننا نستطيع أن نغيب عن قدرة الله أو أن نخدعه . . فيقول للإنسان قبل أن تغرك قوتك . . وتبارزنى بالمعاصى . . وتكفر بنعمتى . . تدبر قليلا لتعرف مقدار نفسك . . أنت تحسب نفسك سيدا فى الكون . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى جعلك سيدا . . وأخضع لك كل قوى الكون اخضاعا جبريا . . لا دخل لارادتك فيه . . وكان هذا أولى أن تسجد لله شكرا على نعمه . . ولكن الغرور يأخذك . . وعبادة النفس . . وعبادة الفرد . . وظاهر الحياة الدنيا تجعلك تغتر بقدراتك . . فإذا حدث لك هذا . . فاجلس دقائق وتدبر مم خلقت . . من ماء دافق . . من خلية فى غاية الدقة لا ترى بالعين المجردة . . هذه الخلية الدقيقة . . هى أصلك . . من بعد آدم وحواء . . تتشكل هذه الخلية التى هى فى غاية الدقة . . ثم تبدأ فى العمل بقدرة الله . . فيسير كل شيء فى مساره . . فتجد أن هذه الخلية غير القادرة على أن تفعل شيئا ـ إذا تركت وشأنها ـ عندما تمسها القدرة تتشكل وبعضها يخلق عظاما . . وبعضها يخلق عضلات . . وبعضها يخلق أعصابا . . وبعضها يخلق عقلا . . وبعضها يخلق رئة . . وبعضها يخلق قلبا . . وبعضها يخلق عينين ولسانا وشفتين . . ويدين وقدمين . . وبعضها يبقى فى الجسم ليخلق نموا بعد

أن تأتى أنت إلى الدنيا . . وهكذا نجد أن هذه الخلية غاية فى الدقة تخلق ملايين الأشياء التى يتكون منها جسم الإنسان ودمه وكل ما يحتاجه هذا الجسم من حياة . . بل إنه من الشيء الواحد نجد أشياء فى الخلق . . فمن العظام . . نجد عظاما جوفاء . . وعظاما مسطحة وعظاما دقيقة . . ثم تتصل هذه الأجهزة بعضها ببعض لتبدأ العمل كوحدات متكاملة فينشأ جهاز عصبى متكامل . . وجهاز هضمى متكامل . . كل ذلك يدل على قدرة فائقة وهندسية الهية . . هى وحدها القادرة على اتمام هذه المعجزة . .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . لا تغتر بما أنت فيه من ابداع خلق . . ولكن إذا أردت فارجع هذا إلى أصله . . لتعرف عظمة القدرة الالهية . . فقدرات الخلق لا تكمن فى هذه الخلية . . ولكنها تكمن فى قدرة الله . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ ﴾

الطارق آية ٥

حتى لا يغره ما هو عليه الآن . .

على أن هناك بعض الناس يتساءلون . . إن آدم لم يخلق بهذه الطريقة . . فهل الخطاب فى القرآن موجه إليه . . نقول لهم إن هناك فرقا بين مشهدية الخلق . . وغيبية الخلق . . والله سبحانه وتعالى حين خلق آدم كانت هناك مشهدية الخلق . . أى أن آدم عرف كيف خلق ورأى الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فهو غير محتاج لهذا التذكير . . ولكننا نحن وكل من خلق بعد آدم . . كانت هناك غيبية فى خلقه . . أى أنه لم يعه ولم يشهده . . ولذلك فإنه فى كثير من الأحيان يغيب عن عقله أن يتدبر فيه . . ويأخذ الأشياء على أنها بديهيات . . أو مجرد تفاعلات تتم ، متناسيا قدرة الله سبحانه وتعالى . . الذى جعل من هذه الخلية الدقيقة كل الأجهزة المعقدة فى الجنس البشرى . . ثم بعد هذا أعطاها كل أطوار النمو حتى الموت .

● **لفتة من الخالق**

فإذا كان الإنسان تغره قوته ، وقدرته فالله يلفته إلى خلقه . . ويقول له تذكر مم خلقت . . لتعرف قدرتى . . ولا تغتر بنفسك . . تذكر الخلية الدقيقة الصغيرة التى بدأ خلقك بها . . وقبل ذلك كنت عدما . . والله الذى أتى بك إلى الحياة . . وهنا نلاحظ دقة المعنى فى السورة الكريمة . . فالله سبحانه وتعالى يريد لقدرته أن تطرق عقولنا دائما لتكون حاجزا واقيا لنا من المعاصى . . فكلما أخذتنا الدنيا . . وغرنا ما نحن فيه من جاه وسلطان ونفوذ طرقت قدرة الله عقولنا . . لتذكرنا أن اللهموجود . . وأن هناك من يسجل علينا أعمالنا . . وأن نتدبر فى خلقنا لنرى القدرة . . بعض الناس يتساءل ما هى العلاقة بين النجم الثاقب والكرام الحافظين وخلق الإنسان ؟ كلها أشياء قد يخيل للناس انها غير مترابطة . . ولكنها مترابطة تماما . . وإن كانت تنتقل من موضوع إلى آخر فى أشياء يبدو أنها لا علاقة لبعضها ببعض . . بعض الناس يتساءلون ما هى العلاقة بين النجم الثاقب وخلق الإنسان مثلا ؟ ونحن نقول إنها تذكير بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فالنجم الثاقب يذكر بأنه لا شىء يغيب عن علم الله مهما حاولت أن تذكره . . والخلق تذكير بعظمة الله وقدرته بالنسبة للإنسان . . وكيف إن هذه القدرة تأخذ خلية دقيقة لا ترى بالعين المجردة لتصنع منها الإنسان الذى يسود الكون .

ثم تمضى السورة الكريمة . . بعد أن ذكرتنا بالنجم الثاقب . . والكرام الحافظين . . وعظمة خلق الإنسان . . يقول الله سبحانه وتعالى **« إنه على رجعه لقادر »** إذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا كله من عدم . . وأوجده وركبه . . من خلية متناهية فى الدقة . . أفلا يستطيع أن يعيده . . القدرة هنا تقول نعم . .

ولنضرب مثلا على ذلك ولله المثل الأعلى . . إذا أتيت بصانع صنع لك شيئا وتحطم هذا الشىء . . أفلا يستطيع أن يصنع غيره . . فى هذه الحالة يكون عليا أهون . . لأن الصناعة الأولى أكسبته خبرة تجعل اعادة صناعة الشىء أسهل

وأيسر . . وإذا كان ذلك فى القدرات البشرية المحدودة . . فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى التى هى بلا قيود ولا حدود . . وإذا كان الإنسان قد خلق من عدم . . أى إنه خلق من لا شيء ظاهر . . فإنه حين يموت ويتحلل لا يخرج عن قدرة الله . . لأن الله فى هذه « الحالة » يستطيع أن يعيده . . وهو أسهل عليه . . فالخلق الأول من عدم . . والخلق الثانى من شيء كان موجودا . . ولاشك أن الخلق من عدم أصعب من الخلق من وجود . . ونحن نقول هذا لنقرب المعنى إلى العقل البشرى ، فليس هناك عند الله سبحانه وتعالى سهل وصعب . . بل كل شيء يخضع لكلمة « كن » . .

والله حين يذكرنا بأنه على رجعنا لقادر . . ليس لأن الله محتاج إلى خلق من خلقه . . فالله غنى عنا جميعا . . لا يزيد من ملكه شيء إذا آمنا . . ولا ينقص من ملكه شيء إذا لم نؤمن . . ولكنه يذكرنا رحمة بنا لأن القرآن رحمة للناس جميعا . . وهو يريد أن تطرق عقولنا دائما عظمة الخالقة ، وضآلة المخلوق . . علّ هذه التذكرة تعود بنا إلى طريق الله . . وتمنعنا من المعصية . . فقول الله سبحانه وتعالى « إنه على رجعه لقادر » . . أى لا تحسبوا إنكم تستطيعون أن تخرجوا على سلطان الله أحياء كنتم أو أمواتا . . أو تخرجون من قدرة الله أينما كنتم . . وكيفما كنتم . . وهذا الاعجاز فى خلق الإنسان يزيد إيماننا بقدرة الله سبحانه وتعالى . .

● وتبلى السرائر

ثم تمضى السورة الكريمة فيقول الله سبحانه وتعالى « يوم تبلى السرائر » . . وهى تمضى فى نفس المعنى وهو أننا لا نستطيع أن نستر شيئا عن الله سبحانه وتعالى . . والنية هى أساس الحساب عند الله . . ولذلك قال الله « يوم تبلى السرائر » . . النية محلها القلب . . وهى القصد الحقيقى الحر للإنسان . . فليس لأحد فى هذه الدنيا أن يجبر قلبك على ما لا تريد . . قد يخضع جسدك ويجعلك تفعل ما يطلبه منك كرها واجبارا . . وقد يخضع لسانك ويجعلك تقول ما يريده خوفا أو رعبا . . وقد يخضع حركتك فيضعك فى السجن أو فى مكان

لا تستطيع أن تغادره . . كل هذه القوالب المادية للجسد تخضع للقهر . . إلا القلب . . فلا إنسان يستطيع أن يخضع قلبك على شيء أنت لا تريده . . وأن يضع فى القلب مشاعر لا ترضى أنت عنها . . بل ان ما فى داخلك لو اجتمعت الدنيا كلها على أن تضع فيه ما لا تريده أنت ما استطاعت . . ولقد ترك الله هذه المنطقة فى حرية تامة لأن الحساب يكون عليها . . ولكى يكون الحساب عدلا يجب ألا تتدخل أى قوى بشرية بالاكراه بل يخضع لإرادتك الحرة وحدها وهذه شهادة عليك لا لك . .

ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى الحساب عن كل من يكره على شيء مادام قلبه مستنكرا له . . يأباه ولا يريده . . حتى الإيمان والكفر . . القمة فى هذه الحياة . . قال الله سبحانه وتعالى . . « **الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** » . . وحتى الاكراه على الفاحشة فإن الله لا يحاسب عليها . . فالحساب أساسه الارادة الحرة التى هى فى قلبك . . مشاعرك الحقيقية التى لا يستطيع إنسان أن يكرهك فيها على شيء . . ولكن الله يحذرنا فى نفس الوقت من أن نعتقد أننا نستطيع أن نخدع الله . . فنقول « أكرهنا » . . مع أننا لم نكره . . بل فعلنا طائعين مختارين . . فهو يقول سبحانه وتعالى « **يوم تبلى السرائر** » . . أى يظهر الله سبحانه وتعالى حقيقة ما فى القلوب . . ونحن مهما بلغنا من الذكاء والفطنة والعبقرية . . قد نستطيع أن نخدع بشرا مثلنا . . أو مجموعة من البشر . . ولكننا لا نستطيع أن نخدع الله . . وفى الآخرة يظهر الله ما فى أنفسنا واضحا جليا بعد أن كان الإنسان يخفيه فى الحياة الدنيا . . والله لا يعلم السر فقط . . ولكنه يعلمه ويظهره يوم القيامة . . فإذا كنت قد حسبت إنك نجوت . . لأن أحدا لا يعرف ما فى نفسك . . أو حقيقة ما أخفيت . . فإن الله سيظهر هذا فى الآخرة . . فإذا أوجدت الفرصة لتعمل شيئا أنت متأكد انك تستطيع أن تخفيه عن الدنيا كلها ولا تحاسب عليه . . فاعلم انك لن تفلت من حساب الله . . فالسر يعلمه الله . . وإذا كانت لك قوة فى الدنيا تحمى هذا السر من أن يكتشف . . فإنه لن تكون لك قوة فى الآخرة . .

وتمضي السورة الكريمة « فما له من قوة ولا ناصر » . . القوة تنقسم إلى قسمين أساسيين . . إما أن تكون قوة ذاتية تملكها أنت بأية وسيلة من الوسائل فتحميك . . كقوة جسد . . أو قوة سلاح . . أو أية قوة أخرى تقف منعة من أن يصل إليك القصاص . . وإما أن يكون لك أقوياء ينصرونك على عدوك . . كأن تكون من عائلة ذات عزوة أو يكون حولك أناس أقوياء مسلحون يقفون معك وينصرونك على عدوك . . والسورة تمضي فى نفس المعنى . . فهى بعد أن تذكر الإنسان بألا يغتر بخلقه واخضاع الكون له ، تذكره بألا يغتر بقوته ولا بمن ينصرونه . . وفى الآخرة لن تكون لك قوة من ذاتك . . ولن تكون لك عزوة تنصرك وتعينك على من تظلم . . ولكن لماذا التذكير هنا بالقوة . . لأن القوة تغرى الإنسان بالظلم . . والمظلوم هو ضعيف أخذ قوى حقه . . فهو لا يستطيع أن يسترده . . والذى يبغى فى الأرض ويتجبر هو من له قوة تنصره وتعينه على هذا . . والله سبحانه وتعالى يقول لا تجعل الظلام يغريك بأنه سيسترك . . ولا تعتقد أن الله سبحانه وتعالى يتركك هكذا . . بل هناك حافظون يسجلون عليك كل ما تفعل . . ولا تجعل غرور البشرية يأخذك . . بعيدا عن الله . . ولا تحسب أن ما تخفيه ينجيك . . ولا تعتقد أن قوتك فى الدنيا . . سواء أكانت قوة ذاتية أم من أهلك واتباعك يمكن أن تحميك من الله . . دع كل هذا يطرق عقلك فى كل ثانية . . حتى تعرف قدرة الله فتتبع منهجه وطريقته .

● ذات الرجع

والله سبحانه وتعالى حين يذكرنا بالآخرة . . فلأن هذه هى أمنية كل إنسان أسرف على نفسه وأطلق لها العنان فى شهواتها بلا حساب . . وأمنية الكافر الكبرى هى ألا يكون بعد الموت شىء . . لأنه إذا استحضر الجزاء أصاب نفسه الخوف والهلع . .

ثم تمضى السورة الكريمة . . « والسماء ذات الرجع » . . والرجع هو المطر . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا هنا بحقيقة علمية هامة لم يكشفها الله لعباده إلا بعد نزول القرآن بمئات السنين . . ولقد عرفنا فيما كشفه الله لنا من

علم بشرى أن مياة البحار تتبخر ثم بعد ذلك تصعد إلى السماء فتصبح سحابا ثم تعود إلى الأرض مرة أخرى على شكل مطر . . أى أن السماء ترجع الماء إلى الأرض . . ومرة أخرى تتم الدورة ، وتتبخر مياه البحار والمحيطات وينشأ السحاب ثم يعود الماء . . أى أن الماء الذى يترك الأرض يعود إليها مرة أخرى . . وانظر إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله تعالى « **والسماء ذات الرجع** » . . أى السماء ذات المطر . . هكذا تفهم لمن لا يعلم شيئا عن عملية البخر التى تتم . . ولا يوجد فيها تصادم مع عقل بشرى يجهل هذه الحقيقة العلمية . . فإذا عرفنا الحقيقة العلمية تكون الآية أدق فى المعنى وأشمل . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى « **والأرض ذات الصدع** » . . أى الأرض التى تتشقق ليخرج منها الزرع . . وهذه أيضا تتكرر فى كل دورة زراعية . . فتتشقق الأرض ليخرج منها زرع . . ثم يأتى زرع جديد فتتشقق الأرض ليخرج منها المحصول الجديد . . كل شىء يأتى ويعود . . هذه هى قوانين الله فى الأرض . . وإذا كان كل شىء يعود . . مثلما يأتى . . فلماذا الإنسان وحده لا يعود ؟!! إذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل للماء دورة يعود بها إلى الأرض مطرا . . وجعل الأرض تعطى المحصول بعد المحصول إلى ما شاء الله . . فما الذى يجعل الإنسان يشذ ويقول . . إنه لن يعود مرة أخرى إذا كانت دورة الحياة فيها عودة . . والله سبحانه وتعالى أراد أن يبسط أمام عقولنا ويعطينا مثلا لما يمكن أن يحدث فى عودة الإنسان . . فأعطانا مثل الماء والزرع . . ليبين لنا أنه قادر على اعادة الشىء مرات ومرات . . وأن المسألة ليست شيئا عسيرا . . ولكنها شىء يسير جدا يتكرر فى الحياة أمامكم . . وتراه عيونكم كل يوم . .

ثم تمضى السورة الكريمة « **إنه لقول فصل وما هو بالهزل** » . . وهنا يعطينا الله سبحانه وتعالى عمق القضية وجديتها . . فالله لا يسوق لنا كل ما تقدم لنأخذه باستخفاف . . ولكن لنأخذه بعمق وجدية . . لماذا ؟ لأنه فى الآخرة سيكون الفصل . . ولن تكون هناك أى فرصة أخرى لإنسان ليتوب أو ليرجع مرة أخرى إلى الحياة الدنيا . . ومادام فصلا فهو نهاية . . ليس بعدها

إلا الجزاء . . فلا يريد الله سبحانه وتعالى من أحد أن يأخذ هذا الكلام إلا بعمق وجدية . . حتى إذا جاء وقت الفصل لم تكن له حجة . . ولم يقل يارب لقد كنت أحسب أننى سأعود مرة أخرى إلى الدنيا . . أو كنت أطمع فى رحمتك لكى تعيدنى إليها . . وقد أعددت نفسى حين أعود على أن أعمل صالحا ترضاه . . أراد الله أن يبطل كل هذا فقال « **إنه لقول فصل** » . . أى حكم لا رجعة فيه . . وقال سبحانه وتعالى « **وما هو بالهزل** » . . أى ما سيلقاه العاصى فى الآخرة ليس هزلا . . كأن يقول بعض الناس « **لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** » . . أو يقولون إننا كنا نحسن الظن بالله . . أو يتحدثون باستخفاف حول النار وعذابها . . الله سبحانه وتعالى ينبههم أن هذه المسألة لا يجب أن نأخذها بهزل . . لأنه سيكون يوما عظيما . . وكل تذكيرى بهذا اليوم هو رحمة بكم . . وهو بذلك يريد أن يلفتنا إلى هول اللقاء الذى سيتم فى الآخرة حتى لا نستخف به . . بل نأخذ كلام الله سبحانه وتعالى على أنه بقدرات الله . . وقدرات الله ليس كمثلها شىء . . وكلما عظمت قدرة الله فى نفس المؤمن أحس بالهول الرهيب فى يوم القيامة . .

● أمهلهم رويدا

نأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة « **إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** » . . هنا يريد الله أن يلفتنا إلى أن هناك من يكيدون للمؤمنين . . ويكيدون لمحاربة دين الله . . وإذا سمعنا أو رأينا لفظا لا يصح أن ينسب إلى الله سبحانه وتعالى مثل الله يكيد وهم يكيدون . . فلنعلم أن ذلك اللفظ لوقوعه فى صحبة غيره . . ويبسط الأمور لنا . . فمثلا قول الله سبحانه وتعالى « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** » . . هل عندما نجازى صاحب السيئة يكون ذلك سيئة أيضا . . أبدا . . انك عندما تجازى صاحب السيئة على سيئته يكون ذلك حسنة . . وإنما سميت سيئة لوقوعها فى صحبة السيئة الأولى . . فالمعنى إذا كنت قد أسأت بفعلك فنحن حين نعاقبك على ذلك نسىء إليك . . أى نعمل شيئا يصيبك بالسوء . . وإن كان هذا الشىء فى حقيقته شيئا حسنا لأنه يدفع

السيئة . . أو على الأقل لا يجعلك تكررها مرة أخرى . . فإذا كان يدفع السيئة ، وذلك شيء يسوؤك لأنك لم تصل إلى هدفك الذى كنت ترجوه فأنت قصدت بالسيئة ايذاء معينا أو عملا تسيء به إلى إنسان . . ومادام الضرر لم يقع فإنك تحس . . إن كل ما قدرته وأعددته قد أبطله الله . . فيسوؤك ذلك رغم أن ما حدث هو فعل حسن . . وأما إذا قوبلت السيئة بالسيئة كأن تضرب إنسانا ضعيفا فيأتى من هو أقوى منك فيضربك . . فإنه فى هذه الحالة يكون ما حدث حسنا لأنه يعلمك ألا تفترى على الضعيف والله سبحانه وتعالى قادر على أن يسلط عليك من هو أقوى منك . . وتعلم أنه إذا أغرتك قوتك فعليك أن تتذكر قدرة الله سبحانه وتعالى وحينئذ يكون الفعل الذى قوبلت به السيئة هو فعل حسن . . وإنما سميت سيئة كما قلنا لوقوعها فى صحبة الأولى . . فإذا كان أولئك الذين يكيدون ويخططون ويدبرون . . يفعلون ذلك لايذاء المؤمنين ومحاربة دين الله . . فإن الله يواجههم بنفس جنس عملهم . . أى أنه يتركهم يدبرون ما يدبرون . . ويدبر الله سبحانه وتعالى ما يبطل كيدهم . .

ولذلك فعندما نرى اناسا يحاولون أن يستغلوا العلوم المادية فى صرف الناس عن الإيمان أو مستشرقين يدعون البحث فى الإسلام . . وهم فى الحقيقة يحاولون أن يصلوا إلى أى تناقض ظاهرى يستغلون به عقول السذج والضعفاء . . وعندما أرى من يجادل فى خلق السموات والأرض إلى آخر ما يحدث امامنا هذه الأيام . . نعرف أن هؤلاء جميعا يحاولون الكيد لدين الله . . وتزييف الطريق المعوج . . مستخدمين فى ذلك كل الوسائل . .

وقبل أن نمضى فى الحديث عن هؤلاء الناس . . يجب أن نلتفت إلى حقيقة هامة هى أن دين الله سبحانه وتعالى يشتد ويقوى عندما يوجد من يحاربه . . فإذا رأيت الإسلام يضطهد فى أى مكان فاعلم أن ذلك بداية ليصحو الدين فى نفوس المؤمنين ويصبح قويا عاتيا يعصف بمن يحاربه . . وأى اعتداء على الإسلام إنما يعطى قوة دافعة لهذا الدين فى قلوب الناس . . وبعض المؤمنين يشفق من كيد الكافرين ضد الإسلام . . إما خوفا من أن يؤثر ذلك على المؤمنين ويجذبهم بعيدا

عن الطريق المستقيم وإما جزعا أن يؤدى ذلك إلى ضعف الدين وانصراف المؤمنين عن عبادتهم . . وكلا الرأيين غير صحيح . . لماذا ؟ لأن هؤلاء الكافرين يكيدون بقدراتهم البشرية . . فهم يأتون فى قضايا يحاولون اظهار تصادم القرآن مع حقائق الكون مثل تفسيرهم الخاطىء لكروية الأرض والذى تحدثنا عنه فى الفصول السابقة وأثبتنا أن قول الله سبحانه وتعالى « **والأرض مددناها** » دليل على كروية الأرض . . أو يأتون فى محاولة لاظهار تناقض فى القرآن الكريم . . كقول الله سبحانه وتعالى « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » ثم قوله تعالى

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ سورة العنكبوت آية ١٣

والحقيقة أن النفس الأولى التى يعنيها الله سبحانه وتعالى فى قوله « **ولاتزر وازرة وزر أخرى** » وهى النفس التى ترتكب المعصية . . فكل إنسان يحاسب عن معاصيه . . ولايسأل عما فعله غيره من المعاصى . . أما النفس الثانية التى يبينها الله سبحانه وتعالى فى قوله « **وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم** » . . هى النفس التى لاتكتفى بالمعصية . . بل تحاول أن تضل غيرها وتدفعها إلى المعصية . . فقد يكون هناك إنسان يصلى فيأتى شخص ويظل يجادله بالباطل حتى يصرفه عن صلاته . . وقد يكون هناك إنسان يدفع إنسانا آخر إلى المعصية دفعا . . وهناك نوع ثالث يحاول أن يستخدم كل مهاراته ومنطق خداعه ليضل الناس عن سبيل الله . . هؤلاء لايحملون أوزارهم فقط ولكن ينالهم نصيب من أوزار الذين أضلوهم . . وقد يأتى إنسان ليحاول أن يخرجك عن مفهوم الإيمان . . بأن يصل العبادات لغير الله . . كأن يقول إن الصلاة مثلا نوع من الرياضة إلى آخر مانسمعه ونراه . . ذلك كله نشهده هذه الأيام . . ونراه أمامنا فى كل لحظة .

الله خير الماكرين

على أن الله سبحانه وتعالى فى ذكره لهذه الحقيقة وهى أن هناك ناسا سيأتون ويكيدون لدين الله . . ويكيدون للمؤمنين . . من الآن وحتى قيام الساعة . .

لا يذكرها ليعلمنا بهم فقط . . ولكن ليؤكد لنا أنه إذا كان هؤلاء الكافرون يكيدون . . فهناك كيد الله سبحانه وتعالى . . وهو أقوى منهم وأقدر . . ومن هنا فإنهم إذا فعلوا لا يجب أن يدخل فى أنفسنا أى جزع أو خوف لأن الله لهم بالمرصاد . . وانى أعجب لبعض الناس يدبرون ويخططون ضد دين الله فى الأرض . . وليعلوا كلمة الباطل . . وهم فى تخطيطهم هذا يعملون حسابا لكل خطوة . . ويدرسون كل الاحتمالات . . ومن كل الزوايا . . ويتوهمون إنهم سينجحون فيما ينوون فعله . . نقول لهؤلاء انكم تنسون شيئا هاما . . وهو أن الله موجود . . وأنه يخطط ويدبر . . وأن الفرق هو انكم تخططون بقدرة مساويكم من البشر . . ولكنكم لا تشعرون بما يعده الله سبحانه وتعالى لكم . . فالله سبحانه وتعالى يشعر بمكركم وأنتم لا تعرفون ماذا يعد الله والله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك « **وإذ يمكر بك الذين كفروا** » . . ثم يقول الله « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** » . . لماذا قال الله سبحانه وتعالى إنه خير الماكرين . . لأن مايعده الله لايعلمه أحد . . ومادام لايعلمه أحد فهو يأتى بغتة ليبهت أولئك الذين وضعوا كل مكرهم وحيلتهم فيما أرادوا أن يفعلوه . . إنهم يكيدون كيدا للدعوة . . وماداموا لم يستطيعوا الوقوف أمام الدعوة وأمام دين الله وقوف مواجهة بدأوا يمكرون . . أى يعدون الخطط فى السر ويتحايلون على مواجهة دين الله . . ولكن كل مايفعلونه مفضوح أمام الله . . والله سبحانه وتعالى لاتنطلى عليه حيلة . . ولاينطلى عليه خداع . . وهو يعرف أمورا يظن من يكيد للدين أنها خافية عليه . . ولكن هذه الأشياء كلها هى عند الله بأدق أسرارها . . ولذلك تفشل المخططات . . وتنقلب على أصحابها . . كما يحدث فى كثير من الأحيان . . وربما تساءلوا عن السبب . . والسبب واضح . . فهم قد نسوا قدرة الله سبحانه وتعالى . . وهى القدرة الحقيقية فى الكون . . واتجهوا إلى الأسباب . . وهى تعطى . . ولكن أمر الله . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعطل الأسباب إذا شاء . . ويجعلها تعطى إذا شاء . . ومن هنا فالكون كله خاضع لمشيئته . . وليس لقدرة البشر بالأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى للعيش على الأرض . . وانى أقولها بصراحة . . ما من إنسان قدر شيئا ونسى

قدرة الله سبحانه وتعالى . . إلا جعل الله من أسباب هذا الشيء ما يأتيه بعكس ما يطلب . . ثم سلط عليه نفسه وتركه فى الدنيا يذهب هنا وهناك . . ويخطط ويدبر . . ويتمزق قلقا وخوفا دون أن ينال شيئا . .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يدخل الطمأنينة إلى قلب المؤمنين . . وبنفس وحدة المعنى التى فى السورة الكريمة . . سورة الطارق . . بأن تطرق قدرة الله عقلك كل دقيقة . . ولا تغيب عنه أبدا . . ففى حالة الاثم والعدوان تطرق قدرة الله عقلك لتذكرك أن محاولة أى كافر للنيل منك . . لن يتركها الله سبحانه وتعالى تنجح . . وهو يعلم كيد الكافرين وقادر على أن يعطيهم ويجزيهم أضعاف أضعاف ما يكيدون لدين الله . . حين تتذكر ذلك تدخل الطمأنينة إلى قلبك . . وتواجه أى قوة فى العالم دون خشية إلا لله . .

ثم نأتى بعد ذلك إلى ختام السورة الكريمة « **فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** » . . الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله أن يمهل الكافرين وينتظر أمر الله فيهم . . وبعض الناس يستعجل الجزاء ويريد أن ينزل الله سبحانه وتعالى بالظالم الجزاء فور ظلمه . . وبعض الناس يتساءل فى كثير من الأحيان وهو يرى إنسانا طغى وبغى . . أين عدل الله وأين قدرة الله . . نقول له إن عدل الله موجود . . لا يفلت منه أحد . . وقدرة الله موجودة . . لا يستطيع أحد أن يخرج منها . . ولكن الحكمة من الخلق كله تنتفى لو أن كل سيئة قوبلت بالجزاء فى اللحظة التى تتم فيها . . والله سبحانه وتعالى يريد من عبده المؤمن أن يأتيه اختيارا . . لا اجبارا . . فالفرق بين الإنسان وباقى المخلوقات أن الإنسان قادر على الاختيار . . ولذلك فالله لا يريد أن يجبر الناس على الإيمان . . ولو أراد لأنزل عليهم آية من السماء ظلت أعناقهم خاضعة لها إلى يوم القيامة . . ولما كلفه هذا شيئا . . والاختيارية هنا تقتضى شيئين أساسيين . . أن تكون قادرا أن تفعل . . وقادرا ألا تفعل . . وأن يتم اختيارك بحبك لله دون ما قهر على نفسك . . وأن يتعاظم هذا الحب ليتغلب على كل معصية مزينة لمتعة وقتية . .

● **الجزاء غيب**

ولو أن الله سبحانه وتعالى استحضر الجزاء مع العمل . . ما شذ واحد عن الإيمان . . ذلك أنه لو رأى الإنسان ، وهو يمد يده إلى مال حرام ، النار التى سيحرق فيها جزاء على عمله . . لهرب وترك مال الدنيا كله . . ولو رأى الإنسان الذى يغضب الله بأى عمل لو أتيح له أن يرى جزاءه عما فعل لما أقدم على ذلك أبدا . . ولو أتينا بمال الدنيا كله . . وشهوات الدنيا كلها . . ووضعناها فى مكان وأتينا بإنسان فى مقتبل العمر ممتلئا قوة . . حتى يستطيع أن يتمتع بهذا كله أكبر متعة . . وقلنا له : لك كل ما تراه أمامك . . ثم فتحنا له بابا من أبواب جهنم . . وقلنا له قبل أن تتمتع بكل هذا كما تشاء وكيفما تشاء . . فإن مصيرك هنا إلى الأبد . . لو فعلنا ذلك ورأى الإنسان ما سيحدث له بعد المعصية عين اليقين . . لما وجد القوة والقدرة فى نفسه على أن يقدم على معصية . . ولكن الذى يدفع الإنسان إلى أن يقدم على معصية هو أن الجزاء مستور لا يراه . . ولذلك فإنه يمنى نفسه مرة بأنه ليس هناك عقاب ولا آخرة . . ومرة بأنه سيغفر له . . ومرة بأنه سيتوب فى آخر حياته . . ومرة بأنه سيفلت من العقاب إلى آخر ما يدخله الشيطان فى النفس البشرية من محاولة لتزيين المعصية حتى يقدم الإنسان عليها . . ولذلك فإن ستر الجزاء . . هو الاختيار الحقيقى للنفس البشرية وفتح الله الأبواب لبعض العاصين ليزيد ظلمهم ، هو فتنة . . والفتنة هى امتحان أو اختبار . . إما أن تنجح فيه أو تفشل . . وأساس الاختبار أن تكون شهيدا على نفسك . . فلا تقول لو إنه حدث كذا لما فعلت . . ولكنه حدث وفعلت وكنت على نفسك شهيدا . . وسجل ذلك الكرام الحافظون عليك . . فأصبح لا جدال . .

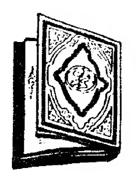
والله سبحانه وتعالى حين يقول « **فمهل الكافرين أمهلهم رويدا** » فهل يريد أن يقول إن الله لا يأتى الجزاء مع نفس العمل . . بل أحيانا يمد للظالم . . ولكن هذا لا يجعلك تيأس . . ولا تحس أن الله قد تخلى عن المؤمنين . . فالجزاء لابد

قادم . . وانما الامهال هنا هو الاختبار الحقيقى لإيمان المؤمنين . . اختبار لمدى قوة هذا الإيمان . . فإذا فتن بذلك الاختبار كان الإيمان ضعيفا . .

على أن بعض الناس يعتقد أن الجزاء فى الآخرة فقط . . وأنا أقول إن الجزاء فى الدنيا والآخرة . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يترك ظالما بلا نهاية . . ولا عاصيا بلا عقاب ليصبح عبرة لكل من حوله . . وهو حين يقتص من الظالم لا يسلط عليه مؤمنا . . ولكنه يسلط عليه من هو أظلم منه حتى يكون الجزاء رادعا . . ويكون الانتقام من نفس نوع العمل وأحيانا هو أشد . . ولذلك فإن قول الله سبحانه وتعالى « **ونذيق بعضكم بأس بعض** » . . إنما يدلنا على أن من يسلط على الظالم يكون ذا بأس شديد ليذيقه من نفس بأس عمله . . والمهم أن الله فى قضائه يجعل الظالمين عبرة ليستريح الناس من أعماقهم إن ربك يمهل ولا يهمل . . على أن إمهال الله للعاصى هو من أبواب الرحمة التى كتبها على نفسه حتى للعاصين من عباده . . فلو أن الله أخذ الناس بذنوبهم ما أبقى عليها منم دابة . . ولكن الله يمهل كامتحان للمؤمن . . وفرصة توبة لغير المؤمن . . وكل شيء مسجل بواسطة الكرام الحافظين . .

وإذا تأملنا سورة الطارق . . نجد أن الله يريد منا أن نتذكر . . وأن تطرق عقولنا قوته وقدرته . . وأنه لا يغيب عن علمه شيء . . ولا نعتقد أن الظلام يخفينا عنه . . وأنه هو الذى خلق النجم الذى يثقب الظلام ويظهر ما فيه . . وهو بعلمه يعلم ما نخفى وما نعلن . . وحتى نعرف جيدا أننا سنكون شهداء على أنفسنا . . وأن كل ما نعلمه مسجل علينا بكرام حافظين يكتبون ما نفعل . . والله يطلب منا أن تطرق قوته عقولنا إذا أصابنا الغرور بما مكننا الله فيه فى الأرض . . فنعلم أننا موجودون بقدرة الله . . وأننا مخلوقون من خلية دقيقة مستها القدرة . . فكان الإنسان . . وأن الإنسان سيد الكون بقدرات الله وليس بقدراته هو . . وإنه سيعود إلى الله سبحانه وتعالى الذى خلقه من عدم . . وإعادته أسهل من خلقه . . والناحية الثانية للغرور هى الاغترار بالقوة . . سواء كانت القوة الذاتية أو قوة من ينصرونك . . فهذه وتلك لن تكونا معك وأنت

تلاقى الله ولن تجد قوة من ذاتك ، ولن تجد من ينصرك . . والوجه الثالث للاغترار . . هو الاغترار بالذكاء بأن تعتقد أنك تستطيع أن تخفى على الله شيئا وما تحاول اخفاءه الله سيعلنه وهو يعلم السر وما تخفيه فى صدرك . . ثم يذكرنا الله فى دورات الحياة المتكررة فالماء يصعد إلى السماء فى هيئة بخار . . فترجعه السماء إلى الأرض كمطر . . وتكون هذه العملية هى مد الأرض بماء عذب سائغ للشاربين من مياه البحر المالحة التى لا يستطيع إنسان أن يشرب منها كوبا واحدا . . وهذه العملية تبين لنا أن كل شيء يدور عدة دورات فكوب الماء الواحد يشربه ملايين الأشخاص كل فى عصره . . فهو يدخل الجسد البشرى ويخرج منه ثم يتبخر . . والأرض (نفس قطعة الأرض) أطعمت ملايين الأشخاص على مر السنين . . فإذا كان لكل شيء عودة . . فلماذا يشذ الإنسان ويحسب إنه لن يبعث . . ويضيف الله بأن هذا قول فصل يجب أن يؤخذ بعمق وجدية . . وأن الذين يحاربون دين الله يجب أن نواجههم . . وقدرة الله تطرق عقولنا فنعرف أنهم لا حول لهم ولا قوة . . وأن الله مذهب كيدهم . . وألا يصرفنا عن الإيمان ما نراه من ظالم لا يقتص منه فى التو واللحظة، أو كافر لا ينزل به عذاب الله . . ذلك لأن لكل من هؤلاء موعدا . . ولكن الله يتركهم فترة امتحان للإيمان وليكون الكافر على نفسه شهيدا . . وأساس الكون كله . . هو الفرصة المتكافئة . . فى قواه الظاهرة وقواه الخفية . . ولكن ما هى القوى الخفية فى الكون ؟



الفصل الثاني

القوى الخفية في العالم

الله سبحانه وتعالى حينما خلق هذا الكون . . وضع لكل شئ فيه قانونا . وجعل القوانين تخضع لمن خلقت من أجله . . فالإنسان له القانون البشرى الذى يناسب خلقه من طين . . والجان له القانون الذى يناسب خلقه من نار . . فهو يستطيع أن يخترق الجدران بحكم طبيعة خلقه . . ويستطيع أن يتشكل كما يشاء . . والشياطين لها قوانينها . . والملائكة كخلق من نور لها قوانين . . وهى تصعد إلى السماء وتنزل إلى الأرض بأمر ربها . .

ونحن حين نتحدث عن العلم . . فإننا نطلب من العقول أن تنطلق كما تشاء . . لتبحث فيها تشاء من ظواهر الكون المادية . . فقوانين الشمس والأرض والنجوم والرياح والنبات والحيوان . . وكل ما يستطيع الإنسان أن يبحث فيه بحثا معمليا متاح للعقل البشرى . . يجتهد فيه كما يشاء . . ومطلوب من الإنسان أن يكتشف آيات الله فى الكون . . والله سبحانه وتعالى حين قال فى كتابه العزيز :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

سورة فصلت آية ٥٣

إنما أعطانا أنه سيكشف عن هذه الآيات لغير المؤمنين . . لأنه سبحانه وتعالى قال « **حتى يتبين لهم انه الحق** » . . أى أن هؤلاء الذين سيريهم الله آياته منكرون للحق . . ولو أنهم كانوا مؤمنين . . لما كانت هناك حاجة لأن يذكر الله سبحانه وتعالى « **حتى يتبين لهم أنه الحق** » . . ذلك أن المؤمن يعرف أن الله حق . . والقرآن حق . . ورسول الله حق . . وهذا الدين بمنهج حياته وبالاعلام عن الآخرة حق . . ولكن ارادة الله قضت أن يكتشف غير المؤمنين آيات الله ليدحضهم . . ويكونوا هم بعدم إيمانهم المثبتين للإيمان فى الأرض . . ذلك أن الكفار يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله . . فى مرات مستخدمين نظريات يطلقون عليها العلم زيفا . . وفى مرات مستخدمين ما يوجد فى عقول البسطاء من تضاربات يحاولون الايهام بها . . بين القرآن وحقائق الكون . . ولذلك يأتى

الله سبحانه وتعالى بهم هم . . ليسخر من كل قدراتهم . . ويستخدمهم فى تثبيت الإيمان . .

والله سبحانه وتعالى . . قد استخدم الكفار فى تثبيت الإيمان . . منذ بداية نزول القرآن الكريم حتى الآن . . ففى أول أيام الرسالة نزلت الآية الكريمة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

سورة المسد

وكانت هذه الآية كما ذكرنا فى الجزء الأول . . أول تثبيت للإيمان على أحد أئمة الكفر . . ذلك أن أبا لهب كان يستطيع زيفا أو كذبا . . أن يأتى فى جمع من العرب ويقول . . « لقد قال فى كلام متعبد بتلاوته إلى يوم القيامة لا يتغير ولا يتبدل . . قال اننى سأموت كافرا وأصلى نارا ذات لهب . . وهأنذا أمامكم أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . لأثبت أن محمدا كاذب فيما يقول » . . كان أبو لهب بهذه الشهادة يستطيع أن يهدم الدين من أساسه . . ولكنه حتى هذا الأمر الاختيارى لم يجرؤ عليه . . وعند تغيير القبلة . . قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

سورة البقرة آية ١٤٢

واستخدام حرف السين هنا يدل على أنهم لم يقولوها إلا بعد نزول الآية الكريمة . . وكان من الممكن ألا يقولوا . . ثم يأتى إلى العرب ويقولوا أن محمدا قد قال « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم » . . ولكن أحدا لم يقل ذلك . . وكان ذلك هدما فى قضية الدين . . ولكنهم جاءوا وقالوا . .

وإذا انتقلنا إلى التحديات فى العصر الحديث . . نجد أن الله سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

سورة الكهف آية ٥١

أى أنه سيأتى أناس يضلون عن سبيل الله . . أى يحاولون اضلال غيرهم . . وأنا لم أشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق إنسان . . ولم أتخذهم سندا لى . . فلو أنه لم يأت من يجادل فى خلق السموات والأرض ولا خلق إنسان . . ويقول ان الإنسان أصله قرد إلى آخر النظريات التى نسمعها عن خلق السموات والأرض وخلق الإنسان . . لقلنا أين هؤلاء الذين أنبأ عنهم القرآن . . ولكن كونهم أتوا . . وكونهم يحاولون الاضلال عن سبيل الله بنفى القدرة الالهية فى الخلق . . فقد جاءوا مثبتين للإيمان . . وسيأتون على مر السنين والقرون . . فعطاء القرآن مستمر حتى يوم القيامة . . سيأتى من الكفار وغير المؤمنين من يكشف لهم الله آيات من آياته . . يحاولون هم الوصول إليها بالتشكيك فى دين الله . . وتأتى نتيجتها بأنه الحق . . وتأتى مثبتة للإيمان . .

● قوانين الجن والملائكة

تلك مقدمة كان لابد منها . . لبيان القدرة الالهية . . وكيف تستطيع أن تسخر الكافر وغير المؤمن بدين الله لتثبيت هذا الدين واظهار أنه الحق . . وهذه العقول غير المؤمنة تحاول أن تدخل فى مجالات لم يخلقها الله للعقل البشرى . . فتجادل فى الملائكة والآخرة والجان والشياطين . . إلى آخر هذه المخلوقات . . التى لم نعرف عنها شيئا ولا نستطيع أن ندخلها إلى المعمل لنضعها تحت الميكرسكوب . .

وليس هذا محاولة للحجر على العقل البشرى . . بل للعقل البشرى الحق فى أن يبحث فى كل شىء . . بشرط ألا يقدم لنا خرافات . . لا يملك عليها دليلا . .

فإذا تحدث عن قوانين الجن والملائكة . . أو عن خلق الإنسان بطريقة تتنافى مع ما أخبرنا به الله سبحانه وتعالى . . نقول ما هو برهانكم ؟ فإذا كان مجرد فرض أو وهم . . فإننا نرفضه ولا نقبله . . وإذا كان عليه دليل مادى فإننا نناقشه . . والله سبحانه وتعالى حين خلق أعطانا قوانين المخلوقات الأخرى التى خلقها . . ولكننا لا نتحدث عن خصوصيات وإنما نتحدث عن الأشياء العامة . .

حين يأتى إنسان ويجادل فى ذلك . . ويحاول أن يكذب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم) . . ويقول هذا غير ممكن . . نقول له : هل عرفت قوانين الشيطان . . فيقول لا . . نقول أليس الدم مكونا من كرات حمراء وكرات بيضاء إلى آخره . . ألا يستطيع أى ميكروب أن يدخل إلى مجرى الدم ويجرى فيه . . إذن فلماذا تنكر أن الشيطان يجرى فى الإنسان مجرى الدم . . مادمت لا تعلم شيئا عن قوانين الشيطان . . ومادمنا نعلم جميعا أن كل شىء فى هذا الكون له قانون يخضع له . . فقانون الشمس ليس كقانون الأرض . . وقانون الجماد ليس كقانون الإنسان . . والملائكة لهم قانون يفعلون ما أمرهم الله . . والجان لها قانون مختلف عن قانون الإنسان . . وهناك عباد يعطيهم الله علما ورحمة . . فيصبحون بقوانين خاصة لهم قدرات على الكون . .

على أننا يجب أن نتنبه إلى سورتين هامتين نقرؤهما كل ليلة . . هما سورة الفلق وسورة الناس . . ففى سورة الفلق نتجه إلى الله ونستعين به فى الأمور التى لا ارادة لنا فيها . . وفى سورة الناس نتجه إلى الله ونستعيذ به فى الأمور التى لنا

فيها ارادة .. ولكننا نخاف أن نضعف أمامها .. ولنوضح هذا الموضوع قليلا ..

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

سورة الفلق

كل هذه الشرور التى نستعيذ بالله منها .. تأتى من خارج أنفسنا .. أو من خارج منطقة الحساب والتكليف فى افعل .. ولا تفعل .. فعندما يقول الله سبحانه وتعالى « **قل أعوذ برب الفلق** » .. فالاستعاذة هنا .. هى الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى من شيء يفزع الإنسان ويهدد أمنه وأمانه .. ولا يستطيع الإنسان أن يواجهه بقدراته .. ومن هنا فهو يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى لأنه القادر على دفع السوء بقدرة تفوق قدرة البشر جميعا ..

والله سبحانه وتعالى هو الذى طلب منا أن نستعيذ به .. ومن هنا فنحن حين نفعل ذلك .. إنما نطبق منهج الله فى أنه أمان الخائفين وجار المستجير .. والمنهج هو النور والهداية للإنسان فى حياته .. والفلق هو النور بعد الظلمة .. أو هو ما ينفلق عنه الوجود والحياة .. وإذا كان الفلق بمعناه الأول أو الثانى .. والله سبحانه وتعالى هو الذى أوجد النور فى الكون لتسير الحياة على هداه .. وهو الذى أوجد النور فى القلوب .. ليهديها إلى الإيمان واليقين .. وهو الذى أوجد الكون وخلقه هذا الخلق المبدع وهو فالق الحب والنوى .. من هنا فكلا المعنيين يلتقيان ..

والله سبحانه وتعالى .. حين طلب منا أن نفزع إليه قال « **من شر ما خلق** » .. وهنا لنا وقفة .. فمادام الله سبحانه وتعالى قال « **من شر ما خلق** » .. فلابد أن هناك شرا .. قد خلقه الله بالنسبة للإنسان .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يخلق لنا إلا النافع فى حياتنا .. والإنسان هو الذى أوجد

الشر . . وأوجد المعصية . . وأوجد كل ما يفسد هذا الكون . . ويسفك الدماء فيه . . وينشر الظلم والبغى والطغيان . . فما هو الشر الذى خلقه الله سبحانه وتعالى ؟

● معنى الفيضانات والزلازل

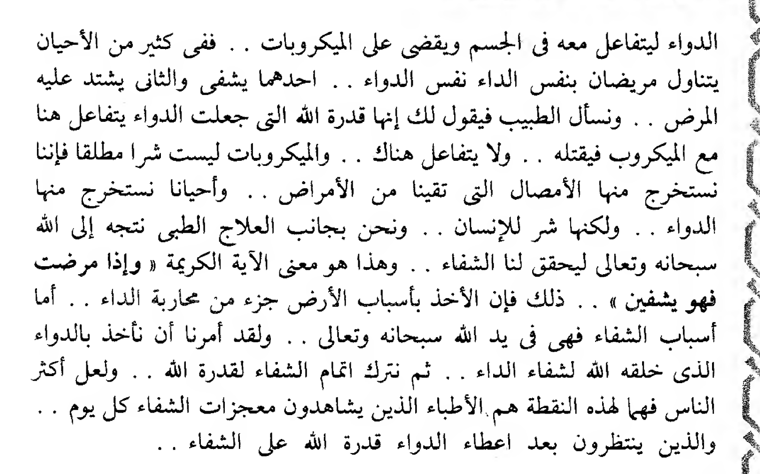
هناك رأيان يجب أن نتناولهما فى هذا الموضوع . . الرأى الأول . . يتعلق بحكمة الخالق . . والرأى الثانى يتعلق بالخلق نفسه . . أما ما يتعلق بحكمة الخالق فالله سبحانه وتعالى قد خلق لنا قوى هائلة فى الكون لنؤدى مهمتنا فى الحياة . . وأخضع لنا هذه القوى بمشيئته هو . . فالشمس والقمر والأرض والنجوم وكل ما فى الكون والحيوانات التى ألفت البشر . . كل هذه القوى مسخرة للإنسان بأمر الله . . ولكن الإنسان بغروره يحاول أن يدعى أن هذه القوى مسخرة له بأمره وذاته . . أى يحاول أن يأخذ مما أعطاه الله له من أسباب الحياة فى الكون ، على أساس أنه شىء طبيعى . . لم تتدخل قوة الله سبحانه وتعالى فى تسخيره . . ومن هنا يأتى الله سبحانه وتعالى بعلامات تذكر الخلق بنعم الله عليهم . . فتأتى الريح لتصير اعصارا مدمرا . . وتحدث الزلازل والفيضانات بأعداد قليلة . . وبصورة نادرة . . لأنه ليس المقصود منها الدمار . . فلو شاء الله لدمر الكون كله فى لحظة . . ولكن المقصود منها التذكير . . ليقول الله للإنسان . . إذا كنت تدعى أن الريح مسخرة لك بأمرك . . أو بقوانينها . . فأنا سأخرق قوانين الريح لتصبح اعصارا مدمرا . . وقوانين الأرض الطيبة التى تعطيك كل شىء لتبتلع ما فوقها . . لعلك تتذكر انك لا تملك السيطرة على هذه القوى . . وإذا كنت تستخدمها وتنتفع بها ، فذلك بقدرات الله سبحانه وتعالى التى سخرها لك . . فاعبده . . وأسجد له . .

وإذا كانت هناك اشارات وقتية تأتى بين الحين والحين . . وفى مساحات محدودة جدا لتذكرنا بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فإن هناك بجانب ذلك ما يذكرنا دائما بهذه القدرة . . فمثلا إذا جئنا إلى الحيوانات . . نجد بعضها

مسخرا للبشر . . ليخدمه فى الحياة . . فالفرس مثلا أقوى من الصبى الصغير مئات المرات . . ولكن هذا الصبى يستطيع أن يركبها ويسخرها لما يريد . . وقوة الصبى وعقله وقدراته لا يمكن أن تجعل الحصان خاضعا له خضوعا اراديا . . أى بارادة الإنسان . . فلو وجدت الفرصة لمعركة بين الحصان والصبى . . لقضى الحصان على الصبى فى دقائق . . ولكن هذا الحيوان ذلله الله لخدمة الإنسان . . فأصبح مقهورا بقدرة الله . . يستطيع أن يستخدمه فى الأغراض التى يريدها . .

فإذا جئنا إلى الثعبان مثلا . . وجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه للإنسان . . وليس معنى هذا أن الثعبان شر مطلق . . بل أن من السموم الناقعات دواء . . فنحن نستخرج من سم الثعبان دواء ربما أنقذ حياة مئات الألوف من البشر . . ونحن نستفيد بجلد الثعبان . . وبعض الشعوب تستفيد بلحمه وتأكله . . إذن فهو ليس شرا مطلقا . . ولكنه شر يمكن أن يؤذى الإنسان ويقتله . . ومن هنا فنحن نستعيذ بالله منه . . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخضعه لنا . ولذلك فهو يستطيع أن يهاجم الإنسان ويقتله . .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى المخلوقات المجهولة لنا . . كالشياطين والجان . . نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يسخرها لنا . . ولم يجعلها خاضعة لخدمة البشر . . وهى تستطيع أن توسوس للإنسان بالشر . . وأن تؤذيه . . ومن هنا فإننا لا نستطيع بقوتنا الذاتية أن نواجهها لأننا لا نراها . . ولكن الله طلب منا أن نستعيذ به منها . . فإذا استعذت بالله من شر هذه المخلوقات وقفت ارادة الله سبحانه وتعالى بينك وبينها حجابا لا تستطيع أن تخترقه ، فأصبحت لا تملك لك ضرا . . إذن فهناك أشياء لم يخضعها الله سبحانه وتعالى بقدرته للبشر . . ولا يستطيع البشر أن يخضعها بقدراته . . وسواء أكانت هذه الأشياء من قوى الطبيعة . . أم من قوى الحيوانات . . والإنسان الذى يعيش معنا أو من القوى الخفية فى الكون التى لا نراها . . فإنها شر للإنسان . . لأنه لا يستطيع أن يقف أمامها بقدراته الذاتية . . ومادامت كذلك . . فقد أمرنا الله أن نستعيذ به منها . . ونحن حين نلجأ إلى الله فى ساعة المرض . . نلجأ إليه لتكون قدرته مع



الدواء ليتفاعل معه فى الجسم ويقضى على الميكروبات . . ففى كثير من الأحيان يتناول مريضان بنفس الداء نفس الدواء . . احدهما يشفى والثانى يشتد عليه المرض . . ونسأل الطبيب فيقول لك إنها قدرة الله التى جعلت الدواء يتفاعل هنا مع الميكروب فيقتله . . ولا يتفاعل هناك . . والميكروبات ليست شرا مطلقا فإننا نستخرج منها الأمصال التى تقينا من الأمراض . . وأحيانا نستخرج منها الدواء . . ولكنها شر للإنسان . . ونحن بجانب العلاج الطبى نتجه إلى الله سبحانه وتعالى ليحقق لنا الشفاء . . وهذا هو معنى الآية الكريمة « **وإذا مرضت فهو يشفين** » . . ذلك فإن الأخذ بأسباب الأرض جزء من محاربة الداء . . أما أسباب الشفاء فهى فى يد الله سبحانه وتعالى . . ولقد أمرنا أن نأخذ بالدواء الذى خلقه الله لشفاء الداء . . ثم نترك اتمام الشفاء لقدرة الله . . ولعل أكثر الناس فهما لهذه النقطة هم الأطباء الذين يشاهدون معجزات الشفاء كل يوم . . والذين ينتظرون بعد اعطاء الدواء قدرة الله على الشفاء . .

إذن فحكمة الخالق فى كل ما تحدثنا عنه من شر للبشر . . هو لفت للقدرة التى سخرت كل شيء للإنسان . . فقوة الميكروب . . أو الثعبان . . أو أى خلق من خلق الله لا تقاس بجانب قدرات الكون كله من شمس وقمر ورياح وبحار وأنهار . . والله يريد دائما أن يلفتنا إلى أن الأشياء مذللة بقدرته وليست بعقولنا . . فيأتى بأشياء متناهية فى عدم القدرة أمام قدرات الكون . . كالميكروبات أمام الشمس مثلا . . ليذكرنا انه هو الذى ذلل لنا قوى الكون الهائلة . . وأننا بقدراتنا لا نستطيع أن نذلل أدنى الأشياء المتناهية فى الصغر كالميكروبات . . وذلك حتى لا يظن الإنسان الذى سخر له الله الكون كله انه مستغن عن الله . . بل تأتى هذه الأشياء لتذكره بالنعم . . وفى نفس الوقت تجعله يحس انه محتاج إلى الله فى كل دقيقة . . وخوف الإنسان من الأشياء التى لم تذلل له هو ربط للإنسان بالخالق . . وفى نفس الوقت اشعار للإنسان بضعفه وقدرة خالقه . . ذلك أنه ضعيف لا يستطيع أن يتغلب على هذه الأشياء . .

ولكنه فى نفس الوقت قوى إذا استعاذ بالله . . فلا تستطيع هذه الأشياء أن تمسه . .

● الحكمة من الخلق

هذه حكمة الخالق . . أما الحكمة من الخلق . . فهى فى المقارنة الدائمة بين ما هو مسخر لنا . . وما لم يسخر لنا . . هذه المقارنة الدائمة المستمرة . . آية يومية لكل من تبعد نفسه عن الإيمان . . انه جبار فى الأرض . . نسى الله . . وحسب انه ملك الدنيا ومن عليها . . وأخذ يملأ الأرض ظلما وطغيانا . . يأتى الله ليسلط عليه أدق مخلوقاته وهى الميكروبات . . فيصبح عليلا مريضا . . لا يقدر على المشى . . وربما لا يقدر على الكلام . . وهنا تظهر حكمة الخلق أمام خلقه . . حينما يرون هذا الجبار وقد أذله المرض . . فيصيحون (سبحان الله) . . وتتجلى القدرة الالهية أمام هؤلاء الذين ينسيهم بريق الدنيا وزخرفها قوة الله وقدرته . .

ثم يمضى الله سبحانه وتعالى ليقول « **ومن شر غاسق إذا وقب** » . . والغاسق هو الليل . . « وإذا وقب » معناها إذا دخل بظلمته . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . أنا خلقت الليل والنهار . . وجعلت النهار مضيئا آمنا لتسير حركة الحياة فى الكون . . وجعلت الليل ساكنا مظلما لتنام فيه وتستريح . . وتصبح قادرا على حركة الحياة فى اليوم التالى . . ولكن لليل ظلمة . . والظلمة تخفى الأشياء . . وتغرى بالشر . . ومعظم الجرائم والشرور ترتكب فى الليل . . وأنت فى النهار قد ترى عدوا يتربص بك . . أو تلمح حشرة يمكن أن تؤذيك وتشعر بالأمن والأمان لأن الدنيا حولك مليئة بالحركة والحياة . . ولكن ذلك ينتفى مع ظلمة الليل . . ومن هنا فأنا أعطيك نعمة الأمان بالليل كالنهار . . وهى أن تستعيذ بى . . ثم تنام أنت هانئا مطمئنا . . لأنى أنا الله الحى القيوم . . الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . . فأنت إذا استعذت بى ستنام فى حراستى وأنا لن أغفل عنك لحظة واحدة مادمت قد لجأت إلى واستعذت بى . . فلا تخش أن

تأخذنى سنة من النوم . . أو أغفل عن أى شيء . . لأننى لا أنام . . ولا يفوتنى شيء مما يحدث فى الدنيا . . ظاهرا أو باطنا . . وحراستى لك . . لا تستطيع جيوش العالم كله أن تمنحك اياها . . فإذا جاء الليل فاستعذ بى ونم آمنا مطمئنا فأنا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم . . لن أغفل عنك لحظة . . ولن أتركك ثانية . . بل ستكون دائما فى حراستى بقدراتى التى لا تستطيع أن تصل إليها كل المخلوقات . .

وتمضى الآية الكريمة فتقول « **ومن شر النفاثات فى العقد** » . . ولقد وقف العلماء عند هذه الآية الكريمة وقفة طويلة . . فقد قالوا . . النفاثات هن الساحرات ولكن فرعون كان له سحره . . ومن هنا أطلق بعض العلماء النفاثات على السحرة على اطلاقهم الذكر والأنثى . . وحدث الخلاف . . لماذا ؟ لأننا نواجه قضية غيبية وليست قضية عقلية . . فأنت لا تستطيع أن تدخل السحر فى المعمل . . ولا تستطيع أن تضع مواصفات له . . ولذلك فإن هذه الأشياء كانت ولاتزال محل جدل كبير . . فبعض الناس ينكرها انكارا تاما على أساس انه لا يصدق إلا ما يراه . . ونحن نقول له هل كان أجدادنا يرون الميكروبات والفيروسات كما نراها الآن . . الجواب كلا . . لأنها كانت غيبا عنهم . . ولكن كونها غيبا لا يمكن أن ينفى وجودها . . وكوننا حين اخترعنا الميكروسكوب ليكبر ألوف المرات . . فإن هذا الاختراع لم يوجد الميكروبات والفيروسات . . ولا يستطيع أحد أن يقول انه خلقها . . ولكنه فقط أزال سترا من الأستار التى كانت موجودة على عقولنا . . فاستطعنا أن نرى ما كان موجودا ولكن لم نكن نراه . . ولله فى ذلك حكمة كبيرة! . . فهو يكشف لنا كل يوم عن أشياء فى الكون كانت غيبا عنا وربما لم نكن نصدقها لنراها أمامنا رؤيا العين . . وتصبح حقيقة واقعة ليقول لنا هذا ما كان غيبا عنكم . . وكانت تنكره عقولكم لأنكم لا ترونه . . قد أصبح حقيقة واقعة أمامكم . . وعرفتم أنه موجود . . حتى إذا حدثتكم عن غيب لم تروه حتى الآن . . فاعلموا أن عدم رؤيتكم له لا ينفى حقيقة وجوده . .

ومادام الله سبحانه وتعالى قد ذكر السحر فى القرآن الكريم . . وذكر السحرة . . فلابد أن يكون هناك سحر وسحرة . . ولكن العلم لا يعرف شيئا عن السحر ونحن نقول لهم هذه قضية غيبية قد تكون علما غدا . . وبعد غد . . ولكنها حقيقة مادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عنها . .

● **السحر وأعين البشر**

ولكن ما هو السحر ؟ يقول الله سبحانه وتعالى . . « **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** » . . والسحر نوعان . . نوع فيه قدرة البشر . . ونوع فيه الاستعانة بقوى غير قوى البشر . . النوع الأول وهو ما فى قدرة البشر لا يغير طبيعة الأشياء وانما يصورها فى عين الإنسان بغير شكلها الحقيقى . . أى أن العين هى التى تسحر . . والنظر هو الذى يخدع . . وليست المادة هى التى تتغير مصداقا لقوله سبحانه وتعالى « **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** » . . وإذا اتبعنا السحر من أبسط ما يقوم به البشر إلى أكبر ما يقوم به الذين يستعينون بغير البشر . . نجد أنه فى أبسط أشكاله خداع للنظر . . فالسحرة البسطاء الذين يقدمون الألعاب فى الحفلات الحواة . . يعتمدون على خداع النظر أو خفة اليد . . ذلك أنهم يتدربون على تحريك اليد بسرعة لا تلحظها العين . . وبذلك يحسب الإنسان أن ما يحدث أمامه هو تغيير لطبيعة الأشياء . . والحقيقة أن ما يحدث هو خداع للنظر . . والنظر يخدع بأشياء كثيرة . . السراب تحسبه العين ماء وبعض ألوان الطيف تبدو كأطباق طائرة للعين . . والحركة السريعة لا تستطيع أن تصل إليها عين الإنسان . . وأنت إذا أدرت مروحة كهربائية وحاولت أن تحدد شكلها وهى ساكنة لا تستطيع إلا بعد أن توقف دورانها لتراها ساكنة أولا . . فخداع النظر لا يمكنك من معرفة الشكل مع الحركة السريعة .

إذن فخداع النظر نوع من السحر . . وهذا معروف الآن لا جدال فيه . . والسحرة الذين يقومون بالألعاب السحرية يعتمدون على سرعة حركة اليد . . فيخدعون العين . . ويبدون وكأنهم يأتون بنوع من السحر .

هذا تفسير بسيط ليفهم الناس أن السحر لا يغير طبيعة الأشياء .. وإنما يسحر العين .. فترى ما يريده منها الساحر أن تراه .. هذا إذا كان السحر مجرد استعراض للقدرات .. أما إذا كان السحر للشر .. فلا يمكن أن يصل الساحر إلى مراده إلا إذا أضاف الرعب والرهبة بجانب خداع النظر .. أى أن الساحر يجب أولا أن يدخل الخوف فى قلب المراد التأثير عليه بالسحر حتى يخضعه تماما .. ويجعله يفعل ما يريد .. ومن هنا فإن بعض هؤلاء السحرة يستعينون بأصوات مخيفة .. أو بجماجم وعظام الموتى .. المهم أنهم أولا يدخلون الرعب إلى نفوس الناس .. ثم بعد ذلك يسحرون أعينهم ويستخدمونهم فى الشر والايذاء .. ونادرا ما يمارس مثل هؤلاء السحرة أعمالهم فى ضوء النهار .. بل هم يمارسونها دائما فى غرفات مظلمة وسط أصوات مثيرة للرعب .. يتسلط من خلالها الساحر على المسحور .. ورغم أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء .. فإنه بإدخال الرهبة إلى القلب مع استخدام سرعة الحركة .. واليد المدربة .. والحيلة المتقنة .. يخيل للرائى أنه يرى قوى خارقة ويخضع لها تماما .. ولذلك عندما واجه السحرة موسى عليه السلام وألقوا حبالهم وعصيهم .. قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

سورة طه آية ٦٦

واستخدام كلمة (يخيل) التى استخدمها الله سبحانه وتعالى يجب أن نلتفت إليها .. وهى أن السحرة لم يغيروا طبيعة الأشياء .. ولكن خيل للحاضرين أن حبال السحرة وعصيهم هى حيات وأفاع تسعى .. فاستخدام الله سبحانه وتعالى كلمة (يخيل) معناه أن الحبال والعصى لم تتغير طبيعتها إلى حيات .. ولكن جو الرعب الذى أحدثه السحرة بجانب حيلتهم وخفة أيديهم قد خدع أعين الناس .. فجعلهم يتخيلون أنها أفاع وثعابين .. حينذاك ماذا حدث .. ألقى موسى عصاه .. فإذا هى حية تسعى وتلقف ما يأفكون .. حينئذ سجد

السحرة لرب موسى .. وصدقوا أنه رسول .. لماذا .. لأنهم أيقنوا أنه ليس ساحرا .. فهم أعرف الناس بخداع النظر .. وهم أعرف الناس بفنون السحر .. وهم أعلم الناس أن الساحر لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء .. ولكن طبيعة الشيء هنا قد تغيرت .. وتحولت عصا موسى إلى ثعبان هائل .. وهذا ليس من صنع ساحر .. ولكنه من قدرة الله سبحانه وتعالى .. وكان السحرة أول الساجدين .. لأنهم أيقنوا أن موسى رسول صادق عن ربه .

● التجربة والتدريب

ولقد دخل موسى هذه التجربة بعد أن دربه الله سبحانه وتعالى .. ليعلم الفرق بين السحر والمعجزة .. وحتى لا يسحره السحرة ويسترهبوه .. فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

سورة طه آية ١٧ - ٢٠

حينئذ أوجس موسى خيفة .. بعد أن رأى العصا التى كانت فى يده تتحول إلى حية هائلة فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة طه آية ٢١

وأعادها الله مرة أخرى عصا ..

لماذا فعل الله سبحانه وتعالى ذلك مع موسى .. يجب أن نعرف أن كل شيء يحدث له حكمة .. لا شيء فى أمر الله يحدث عشوائيا .. أو بلا هدف ..

وهذه معجزة ليست فى تحويل العصا إلى حية فقط .. ولكن نفس ما حدث هو اعجاز . . ذلك أن الله فى علمه أن فرعون سيأتى بالسحرة ليحاول أن يهدم بهم رسالة موسى عليه السلام . . وأن هؤلاء السحرة سيخدعون الناس ويسحرون أعينهم . . فدرب الله سبحانه وتعالى موسى على تغيير طبيعة الأشياء . . ليستطيع أن يتبين الفرق بين السحر والمعجزة . . ولو أن الله سبحانه وتعالى أدخل موسى التجربة دون تدريب . . لكان موسى عندما رأى العصى تنقلب إلى حيات . . خاف وذعر . . وربما حاول الابتعاد عن المكان حتى لا يؤذى . . وكانت هذه كافية لتدخل الشك فى قلوب من آمن . . ومن سيؤمن . . فمادام الرسول نفسه قد خاف من السحرة فلابد أنهم هم الأعلى . . ومن هنا جاء الله سبحانه وتعالى برسوله ودربه أولا . . فزالت الرهبة من نفسه ورأى الفرق بين الحية الهائلة التى تحولت عصاه إليها وبين كيد السحرة الذى لا يمكن أن يقارن بقدرة الله سبحانه وتعالى . . وحين واجه السحرة . . كانت التجربة فى قلبه تحميه . . ومع ذلك **« فأوجس فى نفسه خيفة موسى »** .

فقال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾

سورة طه آية ٦٨ - ٦٩

وكذلك أيد الله نبيه ليثبته مرتين . . مرة بتحويل عصاه إلى حية تسعى . . ومرة أخرى بتأييده عندما أوجس فى نفسه خيفة من السحرة . .

على أن هناك لفتة إيمانية وهى إيمان السحرة بربهم . . ولقد آمن السحرة بالله قبل أن يقتلهم فرعون بساعات . . وبذلك دخلوا الجنة . . وهذه الواقعة . . تجعل الإنسان لا ييأس أبدا من رحمة الله . . ذلك أن هؤلاء السحرة ظلوا على

كفرهم . . وجاءوا ليحاربوا دين الله بسحرهم . . ثم آمنوا حينما رأوا المعجزة . . وكان الإيمان قبل أجلهم بساعات فغفر لهم .

● قوانين لغير البشر

إذن فالسحر بالنسبة للإنسان العادى أو بالنسبة للبشر الذين لا يستعينون بقوى أخرى قد بينه الله سبحانه وتعالى ووضحه بأنه يعتمد أساسا على خداع الأعين وادخال الرهبة فى النفوس والحيلة . . هذه الأشياء الثلاثة تجعل المسحور يستسلم لارادة الساحر . . متوهما أنه يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء وأن يأتى بمعجزات . . والله سبحانه وتعالى يأمرنا بألا نخاف هذا النوع من السحر ولا نخشاه . . وإذا حاول أحد أن يدخل الرهبة فى قلوبنا بهذا النوع من السحر . . فعلينا أن نستعيذ بالله فلا يستطيع أن يؤثر فينا .

هناك نوع آخر من السحر يعتمد على قوى أخرى غير قوى الإنسان . . وإذا أردنا أن نوضح ذلك فعلينا أن نقرأ فى سورة النمل قصة ملكة سبأ . . فعندما أراد سليمان أن يأتى بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى بيت المقدس .

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

سورة النمل آية ٣٨

ولم يجد سليمان الذى أعطى من الله السيطرة على الجن والإنس والشياطين . . لم يجد ممن يطلب احضار عرش ملكة سبأ . . بل معناه أن بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم فى الطريق إليه يعتبر خرقا لقوانين البشر . . وربما لا يكون خرقا لقوانين الجان . . أو لقوانين مخلوقات أخرى لا نعلم عنها شيئا . . ولكنها بطبيعة قوانينها والخواص التى أعطاها الله لها . . تستطيع أن تقوم بهذا العمل .

ماذا حدث عندما طلب سليمان القيام بهذه المهمة ، وما معنى طرح السؤال « **أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** » . . معناه أنْ بلقيس ومن معها قد غادروا اليمن وأنهم فى الطريق إليه . . وهو يريد واحدا أن يذهب إلى اليمن ويأتى بالعرش . . وبلقيس ومن معها مازالوا فى الطريق إليه . . ويصل العرش قبل أن تقطع بلقيس ملكة سبأ ومن معها المسافة الباقية بينها وبين مكان سليمان عليه السلام .

هنا ملاحظة هامة . . من الذى تكلم . . هل تكلم بشر عادى . . وقال أنا أستطيع أن آتيك به . . لا . . لأن هذا فوق قوانين البشر وقدراتهم . . هل تكلم الجن على طلاقته . . لا . . إنما الذى تكلم هو أقوى الجان وليس جنا عاديا . . ولذلك كان المتكلم فردا واحدا . . فقال الله سبحانه وتعالى « **قال عفريت من الجن** » . . إذن . . فالذى تكلم ليس الجن على طلاقته وإنما أقوى الجن الذى يقدر على هذه المهمة الصعبة . . وحينما تكلم أقوى الجان أعطى زمنا يناسب القانون الذى يتبعه . . أى الذى خلقه الله له . . فقال :

﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

سورة النمل آية ٣٩

أى قبل أن يقوم سليمان من مجلسه . . وكم يستغرق مجلس سليمان . . ساعة ، ساعتين . . ثلاث ساعات . . المهم أنه حدد مدة زمنية طويلة إلى حد ما حتى يأتى بالعرش .

هنا تدخل الذى عنده علم من الكتاب . . لماذا . . لأن الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى علما من الكتاب سيأخذ قانونا أقوى من قوانين الجان . .

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

سورة النمل آية ٤٠

هنا يجب أن نتنبه إلى الحكمة الكبرى ، فكل خلق فى حضرة سليمان يتكلم بالقانون الذى أعطاه الله سبحانه وتعالى له . . فالإنسان من طين . . مادة عتمة . . الله سبحانه وتعالى جعل قوانينه تناسب خلقه . . ولذلك عندما عرضت مسألة احضار العرش لم يتقدم إنسان . . ولم يقل واحد من الحاضرين من البشر . . أنا آتيك به إذا أعطيتنى عددا من الجياد القوية أو أى شىء آخر . . وإنما سكت البشر على اطلاقه . . لأن قوانينه تمنعه من التعرض لهذه المسألة .

ولم يتكلم الجن العادى . . لأنه لا يقدر على هذه المهمة . . رغم أن قوانينه قد تؤهله لأن يقوم بهذا العمل . . فالجن بقوانينه أخف وأقوى من البشر . . ويستطيع أن يقطع المسافات أسرع . . وأن ينفذ من المادة . . وهذا قانون أعطته له طبيعة خلقه من نار . . والنار لها قوانين غير قوانين الطين . . أقول سكت الجن على طلاقته خوفا من فشله فى هذه المهمة . ونطق أقواهم وهو عفريت واحد .

وهكذا يجب أن نعلم أن لكل خلق قانونا . . وأن الله سبحانه وتعالى قد جعل من هذه القوانين ما يجعل من بعض خلقه قادرا على أن يفعل ما لا يستطيعه البعض الآخر . . وجعل الذى عنده علم من الكتاب يستطيع أن يخرق القوانين كلها . . لتبقى له سبحانه وتعالى وحده القدرة على أن يغير طبيعة الأشياء . . ويعطى للأدنى ما يجعله فوق الأعلى . . فهو أعطى لبشر من قوانين الكتاب ما جعله يتفوق على جميع خلقه . . ويأتى بعرش ملكة سبأ فى لا زمن تقريبا .

وبعض الناس يستعين فى السحر بقوى لها قوانين تفوق قدرة الإنسان . . فيستعين بالجان والشياطين . .

● حكمة هاروت وماروت

وهنا نأتى لقصة هاروت وماروت . . وقبل أن نبدأ هذه القصة يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون على أساس الفرص المتكافئة . . أى أن لكل

إنسان فى الحياة نفس الفرصة المتساوية التى للإنسان الآخر . . فإذا استعان إنسان بقوى لها قوانين تفوق قدرة البشر . . فإنه أخذ فرصة غير متكافئة مع سائر البشر . . وهو حين يأخذ هذه الفرصة . . إنما يتحدث كذبا انه سيستخدمها من أجل الخير . . ولكن قدرته تغريه فيبدأ فى استخدامها فى الشر والايذاء . . وحينئذ يسلط الله عليه نفس القوة التى استعان بها فتؤذيه . . ويموت إما منتحرا أو مجنونا أو فى فقر مدقع . . والمهم أن نهايته دائما تكون سيئة مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

سورة الجن آية ٦

تلك لمحة سريعة . . سنتحدث عن ذلك بالتفصيل . . يقول الله سبحانه وتعالى فى قصة هاروت وماروت :

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾

سورة البقرة آية ١٠٢

. . ولهذا قصة تروى . . فقد قيل إنه عندما أعطى الله سليمان الملك كان الشياطين يستخدمون السحر فى الافساد فى الأرض . . فقام سليمان بجمع كل تمائم هذا السحر ودفنها فى الأرض . . ولما مات سليمان . . قالت الشياطين إنه كان يحكمهم بالسحر . . ودلت على المكان الذى أخفى فيه هذه التمائم فتم استخراجها . . نعود إلى الآية الكريمة :

﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ﴾

سورة البقرة آية ١٠٢

أى أن الشياطين حاولت الخداع بأن سليمان قد أوتى ملكه عن طريق السحر وليس برسالة من الله سبحانه وتعالى . . « **وما كفر سليمان** » . . أى أن الله سبحانه وتعالى يبرىء سليمان من هذه التهمة ويقول إنه لم يكفر . . بل أوتى رسالة حقيقية من الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان سليمان لم يكفر . . فالذين كفروا هم الشياطين التى أطلقت هذه القصة غير الحقيقية على سليمان . .

وتمضى الآية الكريمة « **يعلمون الناس السحر** »

وإذا وقفنا عند هذه الآية . . نجد كلمة السحر لنعلم أنه بجانب السحر البشرى الذى هو خداع البصر . . يوجد سحر من أجناس أخرى هى الشياطين . . وأن الذين يمارسون هذا النوع من السحر من الشياطين . . هم كفرة . . أو مردة . . عاصين لله سبحانه وتعالى . . والشياطين بحكم قوانينها تستطيع أن تتشكل فى أشكال مختلفة مثل الحيوانات والإنسان أحيانا إلى آخر ذلك . . وهى حين تتشكل فى هذه الأشكال فإنه يحكمها قانون الشكل . . وهذا رحمة من الله سبحانه وتعالى لأنه لو كانت الشياطين تستطيع أن تتشكل بأشكال مختلفة . . ولا يحكمها إلا قانونها . . لكانت الحياة على الأرض عملية صعبة للإنسان . . ولتحكمت فيه الشياطين وأزعجته . . ولكن كونها محكومة بقانون الشكل الذى تتشكله . . فإنها تخشى إن هى بقيت فيه أكثر من لحظات أن يستطيع الإنسان القضاء عليها . . فإذا تشكل الشيطان فى شكل إنسان . . أو قرد . . أو حمار . . فإنك إذا أطلقت عليه الرصاص أو ضربته بسكين قتلته . . وهو يعرف ذلك ، ومن هنا فإنه لا يبقى على هذا الشكل لأنه يعرف أنه معرض للخطر من الإنسان . . فلا يتشكل إلا لحظات . . ثم يعود إلى طبيعته . . وهذا التشكل هو الذى تقوم به الشياطين لخداع البشر . . وأحيانا يتشكل الشيطان على شكل قبيح جدا ويقف بين المرء وزوجه . . وكلما نظر الزوج إلى زوجته وجدها على صورة قبيحة تجعله يكرهها . وتمضى الآية الكريمة :

﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ

حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾

سورة البقرة من الآية ١٠٢

● **الفرصة والحساب**

نأخذ من هذه الآية الكريمة عدة مبادىء .. أولها : إن السحر بهذه الطريقة أى بطريقة التشكل لحجب الحقيقة عن الرائى إنما هو قوانين الجن .. أو الشياطين .. أما الإنسان فلا يملك من فنون السحر غير خداع البصر .
وثانيها : إن هذا السحر نزل به ملكان هما هاروت وماروت ..

وأن كل من أذن له الله ليتعلم على أيديهما قالا له إنما نحن فتنة فلا تكفر .. أى أن هذا النوع من السحر هو فتنة للبشر .. وكل من يتاح له معرفة أسراره .. إنما هو معرض للكفر .. لماذا ؟ لأن هذا النوع من السحر يعطى الإنسان فرصة كبرى على غيره من بنى جنسه .. وإذا ملك الإنسان الفرصة ويستطيع أن يتحكم فى بنى جنسه بقوى أكبر منه فإنه بهذه الحالة يجد نفسه متجها إلى الظلم والبغى والكفر .

ولنوضح هذا قليلا .. هب أننا نعيش فى قرية صغيرة .. وأتيح لأحد أفراد هذه القرية أن يحصل على بندقية أو سلاح نارى .. إنه عندما يحصل عليها يقول : انى سأستخدمها فى حماية نفسى ودفع الأذى عن أهل بيتى .. ثم بعد ذلك يجد انه يستطيع أن يخضع بها أهل القرية كلها .. فيبدأ فى فرض الاتاوات والارهاب والافساد فى الأرض .. وهكذا تعطيه الفرصة غير المتكافئة اغراء كبيرا للإفساد ..

ولكن لماذا أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الفتنة . . الفتن كلها هى امتحان للإيمان . . المال فتنة والولد فتنة والنفوذ والسلطان فتنة والترف فتنة ، وهذه الفتن كلها إنما وضعها الله سبحانه وتعالى فى كونه كامتحان للبشر . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

سورة آل عمران آية ١٤٢

إذن . . فالفتن كثيرة فى الكون . . يأتى إنسان فيقول اللهم ارزقنى مالا لأتصدق وأكون من الصالحين . . فإذا رزقه الله المال . . منع الصدقة وأخذ حق اليتيم والمسكين . . ويأتى آخر ويقول اللهم ارزقنى ولدا أو أولادا يكونون عزوة لى . . فإذا أعطاه الله الأولاد استخدمهم ليرهب بهم الناس ويفرض الاتاوات . . وهكذا . . وكل هذا يدخل فى معنى الأمانة . . أى أن الله سبحانه وتعالى حمل الإنسان الأمانة . . ومعنى ذلك أنه حمله وديعة عنده . . والمهم هو وقت السداد . . وإذا أردنا أن نوضح هذه النقطة قليلا . . فإن الله قد عرض على الإنسان الأمانة أى حرية الاختيار . . فى افعل ولا تفعل . . ويأتى الإنسان ليقول : ربى بما أعطيتنى من حرية الاختيار فانى سأعبدك حق عبادتك وأصلح فى الأرض . . ويمضى الإنسان ليفسد فى الأرض بدلا من أن يصلح فيها . . ويهلك الحرث والنسل . . ثم يأتى وقت أداء الأمانة . . وهو ساعة الموت . . وهنا المفروض أن يقدم الإنسان حسابا لخالقه . . ولكنه لا يستطيع الوفاء بما وعد . . ويأتى وقت السداد فلا يجد شيئا يقدمه . . وكذلك الإنسان الذى يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجعله قادرا على تسخير قوى فوق قوى البشر . . ويقول ياربى استخدمها فى الخير . . ويستخدمها فى الشر وايذاء الناس . . ثم يأتى وقت يجد فيه أنه قد خان عهد الله ولم يرع الأمانة . . وكل ما يصيب الإنسان فى هذه الدنيا

من فتن . . هو اختبار للإيمان . . فالإنسان يطلب والله يعطيه ليختبر إيمانه . . وليس لأن الله لا يعلم هذا الإيمان . . ولكن ليكون الإنسان شهيدا على نفسه . . فيجادل ويقول لو انني أعطيت لفعلت الخير . . ولكنه يعطى الإنسان ليفعل الشر ليكون شهيدا على نفسه . . والإنسان العاقل هو الذى يبتعد عن هذه الفتنة ويقول ياربى أنا لا أضمن نفسى وأخشى أن أفتن فى إيمانى فلا أريد شيئا لا أقدر عليه . . مثل هذا الإنسان يكون بعيدا عن الفتنة . . لأنه عرف ضعف النفس البشرية فرفض أن يحمل أمانة لا يستطيع الوفاء بها . . مكتفيا بما حمله الله فى افعل ولا تفعل . . وهذا الإنسان عادة ليس له صلة بعوالم أخرى وإنما يحيا الحياة الطيبة . . ولكن من لهم تطلعات فى الدنيا هم الذين يطلبون الفتنة ثم يسقطون فيها . . والفتن كما قلنا . . امتحان للنفس البشرية وامتحان عسير . .

● **الخير ممتنع هنا**

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة . . نقول إن السحر عند البشر هو بإخضاع قوى غير بشرية للإنسان يستعين بها . . وهذه القوى . . قوانينها غير قوانين البشر فهى تستطيع أن تقطع المسافات فى زمن قياسى . . وتستطيع أن تتشكل بأشكال معينة . . ومن هنا فإنه يمكنها أن تأتى بأشياء بعيدة فى زمن بسيط . . أو تقوم بالتشكل حسب إرادة البشر التى سخرت له . .

ولما كان هذا السحر من قوانين الجن والشياطين . . فإن الله سبحانه وتعالى قد أطلعنا على ما يمكن أن يفعله . . فتقول الآية الكريمة :

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾

سورة البقرة من الآية ١٠٢

إذن فالخير ممتنع هنا . . لأن الله سبحانه وتعالى قد حدد لمثل هذا السحر ما يمكن أن يؤديه . . فهو يستخدم فى التفرقة بين المرء وزوجه . . أو فى بث الكراهية فى العائلة الواحدة . . أو فى ارتكاب الجرائم والسرقات . . المهم فى أنه يستخدم فيما يضر ولا ينفع . . والضرر هنا يضر الاثنين معا . . من استخدم السحر . . ومن استخدم ضده السحر . . ولكن الله وقى من استخدم ضده السحر . . وطلب منه أن يستعيذ به . . ويقرأ « **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد** » . . ومن هنا وضع الله سبحانه وتعالى سياجا للوقاية للمؤمن . . فالاستعاذة بالله . . وقراءة القرآن الكريم وقراءة سورة الفلق . . ومن يفعل ذلك لا تمسه مثل هذه الأشياء .

على أنه فى قول الله تعالى « **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** » . . معناها أن الذين يتعلمون هذه الأشياء يقع عليهم الضرر . . ذلك لأنهم استغلوا الفرصة غير المتكافئة فى الشر . . ومن هنا فإن الذى يستعين بهذه القوى نجد أن رزقه قد وضع فى يد من هم أدنى منه . . أى أن الله سبحانه وتعالى يرزقه على يد من هو أقل منه علما بتلك القوانين . . هذه واحدة . . والثانية أن الله يسلط عليه من استعاذ بهم من الجن . . فتحدث له الكوارث فى نفسه وأولاده وبيته . . لا يستطيع أن يواجهها . . وتكون نهايته اسوأ نهاية . . فيموت فقيرا . . مصابا بالكوارث . . كافرا . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

سورة الجن آية ٦

أى أنهم باستعانتهم بهذه القوى غير البشرية لا يزدادون خيرا ولكن يزدادون رهقا وعنتا . . ثم يصل بهم الحال إلى الكفر والعياذ بالله وهكذا تكون الفرصة غير المتكافئة وبالا على صاحبها . . لا يرى فيها خيرا أبدا . . ولكن يعيش فى بؤس وشر ورعب حتى ينتهى أجله كافرا .

فالسحر سواء كان بقانون البشر . . أو بقانون غير البشر . . لا يغير طبيعة الأشياء . . ولكنه بقانون البشر هو خداع للعين واسترهاب للنفس . . وبقانون غير البشر هو أشياء تحدث بقوانين مخلوقات أخرى يخيل لنا نحن المحكومين بقانون أدنى . . أن أشياء قد تغيرت . . ولكنها فى الحقيقة لم تتغير . . بل تشكل شيئا ما . . بين بصرك وبين حقيقة الأشياء . . وهى فى الحالتين استخدام لنوع من الخداع بقانون البشر . . أو بقانون غير البشر . . تسترهب الناس وتفتنهم وتسحر أعينهم فيخضعون لها . . والحقيقة أن السحر تخيل وسيطرة على المرء . . سواء بقوانين متساوية أو بالاستعانة بقوى أخرى . . والذى يحدث مجرد تخيل يوقع الإنسان تحت سيطرة الساحر . . ولكن ذلك كله لا يصيب الإنسان المؤمن . . لأن الإيمان يجعلك تعرف يقينا . . إنه لا يوجد جنس فى الكون يستطيع أن يغير طبيعة المادة . . والإنسان المؤمن الذى يستعيذ بالله دائما لا يمكن أن يصيبه كيد ساحر مهما كان . . لأن الله يدافع عن الذين آمنوا . . ويقيهم كل شر . . والإنسان الذى يريد الشر للمؤمن لا يصيب به إلا نفسه . . مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى « **ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله** » . . ثم إن الله سبحانه وتعالى قد حكم على هؤلاء الذين يحاولون بالسحر خداع البشر واسترهابهم مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى « **ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق** » . . أى أن الذين اشتروا بالإيمان خداع الناس واسترهابهم ليس لهم فى الآخرة عند الله أجر . . بل لهم عذاب مهين . . لما اشتروا الكفر بالإيمان . . والله سبحانه وتعالى لا يمكن كافرا من مؤمن . . فالذى يخيل إليه أنه بالسحر واستخدام الشر قد نجح . . يقول له إنك وقعت فى فتنة . . وتمضى الأيام . . ويجد الإنسان الذى أراد الشر بالناس أن هذا الشر يعود إليه ليصبح ذليلا منبوذا تسلط عليه الكوارث . . وتأتى الآخرة . . فإذا هو كافر ليس له فيها نصيب .

بقيت بعد ذلك مسألة الحسد . . يقول الله سبحانه وتعالى « **ومن شر حاسد إذا حسد** » . . ما هو الحسد . . الحسد هو تمنى زوال النعمة . . بمعنى إننى أرى

إنسانا فى نعمة فأتمنى زوالها عنه . . وأعمل فى سبيل ذلك . . ولكن هل للحسد علاقة بالعين . . علاقة مادية . . أو أن الأعمى لا يستطيع أن يحسد مثلا . . هذا خطأ شائع . . فالأعمى والمبصر كلاهما يستطيع الحسد . . أى تمنى زوال النعمة عن شخص آخر . . فالحسد متعلق بارادة الحاسد وليس يبصره . . والإنسان الذى يحسد . . يفعل ذلك اختيارا . . فأنت لست مكرها على الحسد . . ومكان الحسد هو القلب وليس العينين .

ولكن الذى يحسد . . لا يفهم معنى النعمة . . فالنعمة من الله سبحانه وتعالى ولا يوجد عبد تأتى إليه بعلم منه . . بل إن الله سبحانه وتعالى يفتح الأبواب أمام من يشاء ويجعلها صعبة أو مستحيلة أمام من يشاء . . تلك حقيقة يجب أن نفهمها . . النعمة من الله . . وللابقاء على النعمة عليك أن تردد قول الله تعالى : « **ما شاء الله . لا قوة إلا بالله** » . . فى هذه الحالة تنتقل النعمة إلى واهبها الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى فيبطل الحسد .

ومرة أخرى يجب أن نتذكر أن الله سبحانه وتعالى . . قد وضع تكافؤ الفرص فى الكون . . وليس معنى أنه ميسر لك فى الرزق . . أو فى الجاه والسلطان . . إنك تملك أسباب الجاه والسلطان والتمتع . . فهناك من يملك المال وهو عاجز عن التمتع به . . وقد تضع أمامه أشهى الأطعمة ولكنه لا يستطيع أن يمد يده إلى لقمة واحدة مما أمامه . . لما يعانيه من مرض . . وقد تأخذه إلى أجمل بقاع الدنيا ولكنه يجلس فيها حزينا كئيبا . . لا يحس بالجمال حوله . . وقد يعيش فى قصر كبير . . ويكون حارس هذا القصر أو من يخدم فيه أكثر تمتعا من صاحب القصر نفسه . . أكثر تمتعا بالحياة والجمال فى هذا القصر . . إلى آخر ما نراه فى الدنيا كلها . . وقد يجعل الله الإنسان الذى يملك كل أسباب الدنيا محتاجا إلى من هم أدنى منه . . وربما حاجة تنغص عليه حياته .

والفرص المتساوية قد تخفى علينا ونحن نبحث عن المال والجاه . . ولكننا يجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد وهب إنسانا نعمة المال . . وإنسانا نعمة

الصحة . . وإنسانا نعمة البركة . . وإنسانا نعمة اليسر فى الرزق . . ومن فقد شيئا عوضه الله عنه بأشياء . . ففاقد البصر له أذن مرهفة تعوضه عما فقد . . وفاقد الحركة قد يعطى ذكاء خارقا يجعله أعلى بكثير ممن يتحركون فى الحياة . . والأشياء هنا تمضى بمقدار . . فإذا كانت الفرص غير متكافئة ظاهرا فذلك لا يخل بتكافؤ الفرص فى الحقيقة فربما يتمتع إنسان عاجز عن شيء بعطف الناس كثيرا مما يجعله ميسرا فى حياته عن كثيرين .

● معنى الحسد

والحسد هو تمنى زوال النعمة . . وهذا التمنى قد يأتى بأن تعمل أنت على تعطيل الأسباب التى تؤدى للنعمة ظاهرا . . كأن يكون لإنسان أرض وافرة الانتاج كثيرة الرزق تحسده عليها . . فتأتى وتغرقها أو تقلع الزرع منها . . أو يكون لإنسان بيت جميل أو سيارة فاخرة فتأتى لتحرقها . . وقد يكون هذا التمنى بالدعاء دون الفعل . . أو يكون من داخل النفس بحيث يؤثر على المحسود . . فيوجد فى داخله ما يؤرق عليه حياته بمجرد احساسه أن هناك من يتربص به ويتمنى زوال نعمته ويعمل على ذلك .

وإذا كان للحسد أشكال مختلفة . كما للسحر . . فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهما . . فهما موجودان فى الكون . . ولا يمنع وجودهما إنهما شيئان غير ماديين لا يمكن أن نضعهما فى المعمل ونجرى عليهما التجارب العلمية . . فما هو فوق المادة وما لا تراه العين موجود فى الكون لا يستطيع أحد أن ينكره ولقد تعرضنا لهذه النقطة بالتفصيل وشرحنا أن هناك أشياء لم نكن نعلم بوجودها فى الماضى نراها الآن رؤيا العين . . وأشياء لم تكن فى قدرة العقل البشرى منذ مئات السنين قد أصبحت الآن فى قدرة هذا العقل . يستطيع أن يدركها ويستوعبها كحقائق موجودة وملموسة . . والإنسان سواء مارس السحر . . أو كان حاسدا . . فكلاهما معصية لله سبحانه وتعالى . . فممارس السحر يريد أن ينتهى بأن يحقق لنفسه خيرا . . ولكنه ينتهى

وقد أحاط به الشر من كل جوانبه . . وأصبح الخير ممتنعا تماما . . والحاسد يتمنى زوال نعمة غيره ، وهو فى هذه الحالة لن يستفيد شيئا . . فالذى يغرق زراعة غيره أو يهلك أرضه . . أو يحرق بيته . . لن يعطيه الله هذه الأرض أو هذا البيت . . وهو فى الحقيقة ظالم لنفسه . . أى أنه لم يعطها شيئا تنتفع به . . ولو شيئا عاجلا . . ولكنه فى نفس الوقت أعطاها الإثم الذى يوردها مورد الهلاك فى الدنيا والآخرة . . وكان الأحرى بالحاسد أن يعرف أن النعمة من الله سبحانه وتعالى وان الله عنده خير كثير . . وانه يستطيع أن يعطى كلا منا ما يريد دون أن ينقص ذلك من ملك الله شيئا . . ومن هنا فكان الأحرى به أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى ليطلب منه ما يشاء . . ولكنه بدلا من ذلك يتمنى زوال نعمة الغير . . ولو أن هذا المال . . أو الجاه . . أو السلطان . . أو الصحة سيذهب إلى الحاسد لقلنا ربما يبحث عن نفع عاجل . . ولكن الحاسد أول من يعلم أنه لا يصله شيء من هذا . . وهو فى تصرفه إنما ينسب النعمة إلى المنعم عليه . . ولو أنه كان مؤمنا حقا لنسب النعمة إلى خالقها . . ولعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أعطى . . فكأن الحسد هو اعتراض من الحاسد على ارادة الله سبحانه وتعالى فى أن يهب نعمه لمن يشاء . . والاعتراض على الارادة هنا . . نوع من الكفر . . فهو لا ينكر أن الله هو المنعم فقط . . ولكنه يعترض على الارادة التى أعطت النعمة .

والحقيقة أن حسد النعمة-قد لا يصيب إلا الحاسد بحسده . . فمادام المنعم عليه يستعيذ بالله سبحانه وتعالى . . وينسب النعمة إلى المنعم نفسه وهو الله لا يصيبه شيء . . ومادام لم يغتر وقال « إنما أوتيته على علم عندى » ويفسد فى الأرض فإنما النعمة تبقى مادامت منسوبة إلى المنعم . . وتزول عندما ينسبها إلى نفسه . . فالإنسان الذى يقف متباهيا بغرور ويقول أنا فعلت هذا بذكائى وقدرتى . . يقول له الله سبحانه وتعالى مادمت قد أشركت معى شريكا هو ذاتيتك وذكاؤك فأنا أغنى الشركاء عن الشرك ويتركه فتزول عنه هذه النعمة وتذهب لأنه بذاته لا يستطيع أن يحقق شيئا . . ولكن ما يحققه هو بفضل من الله

الذى يوفقه ويهديه . . وينير له الطريق . . ويمنحه الأسباب التى تجعل هذه النعم خاضعة له . . ولو زالت بركة الله من المال لذهب فيها لا ينفع . . ولو زالت بركة الله من الصحة لكان هناك المرض . . ولو زالت بركة الله من أسباب الرزق لأصبحت هذه الأسباب لا تعطى شيئا رغم كل الجهد الذى بذله ويبذله الإنسان .

● **الناس فريقان**

ويجب أن نعلم أن الناس فريقان . . فريق معتمد على الله . . ينسب الفضل دائما لله . . وهذا الفريق لا تزول عنه نعمه . . ولا يضره سحر . . ولا يحسد ماله حاسد . . لأنه محاط بسياج من الله سبحانه وتعالى . . وفريق آخر ينسب الفضل لنفسه وهؤلاء إنما يصيبهم زوال النعمة وغيرها لأنهم قد نقلوا القدرة من الله سبحانه وتعالى إلى قدرة البشر . . وفرق هائل بين القدرتين .

إذن فالله يطلب منا سبحانه وتعالى أن نستعيذ به من أشياء . . وهذه الأشياء إن لم تكن شرا مطلقا فهى شر لنا . . ومادام الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعيذ به من هذه الأشياء فهو يعلم أن قدراتنا لا تستطيع أن تواجهها . . لأننا لا نعلم شيئا عن قوانينها . . فالشياطين مثلا ترى الإنسان وهو لا يراها . . وكذلك الجن . . وجهلنا بقوانين هذه المخلوقات وعدم رؤيتنا لها . . يجعلنا عاجزين عن أن نواجهها بقدرات الدنيا . . وفى هذه الحالة طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نلجأ إليه فيمنع عنا بقدراته هذه الأشياء .

والسحر هو خداع للبصر واسترهاب للنفس . . إما بقوانين الأرض . . واستخدام الجماجم والأصوات المزعجة . . وخفة اليد والحيلة . . وإما بقوانين الجان بالتشكل . . ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء . . والله سبحانه وتعالى حين طلب منا أن نستعيذ به من هذه الشرور كلها . . ورفع القدرة والأمر إليه . . فهو دليل على أنها فوق قدرة العلم البشرى . . فلا نجادل فيها بطريقة معملية مادية . . وإنما نأخذها على أساس إخبار الله لنا بها . . خصوصا وقد عرفنا أنها

غيب عنا . . وكل إنسان مهما بلغ من العلم . . يجد فى نفسه استجابة لهذه الأشياء . . وعليه أن يستعيذ بالله منها . . ومادام الشيء قد خرج عن علم البشر . . ومادام ليس فى قوتك ان تدفعه عنك . . فإن الله سبحانه وتعالى يطلب منك أن ترفع الأمر إليه . . فيواجهه هو بقدراته .

وهناك كلمة أخيرة . . إن شر ما يصيب النفس البشرية هو الوسوسة . . أى الاستماع إلى اغراء الشياطين وقوى الشر . . وليس معنى أن الله أخبرنا بهذه الأشياء أن يدخل الخوف والوسوسة إلى قلوبنا . . بل معناه أن نحس باطمئنان كامل لقدرة الله ، واننا معه فى أمان تام . . لأن الله يدافع عنا . . ولا يدخل إلى قلوبنا لحظة أن هناك قوة أو قدرة تستطيع أن تجب قدرة الله سبحانه وتعالى . . مهما كانت . . وان رحمة الله قد أصابتنا حين نستعيذ به من هذه الأشياء . . فهذا العلم الذى أنزله الله لنا هو سياج الأمن الذى يحفظنا من كل سوء . . ويبعد عنا كل شر . . ولا تصدق دجالا . . أو أفاقا . . يوهمك أنه يستطيع أن يؤذيك أو يضرك . . وأنت محاط بسياج من قدرة الله . . وحتى أولئك الذين أوتوا العلم بهذه الأشياء . . إنما أوتوا الشر الذى يحيط بهم وينهى حياتهم أسوأ نهاية .

على أن بعض الناس يتعلق بالأسباب وحدها . . ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الكون ووضع له قوانين . . ثم تخلى عنه . . ولكن هذا غير صحيح . . فالله سبحانه وتعالى قائم على ملكه إلى يوم القيامة . . وطلاقة القدرة باقية فى الكون مع الأسباب . . وهذا حديثنا فى الفصل القادم .

الفصل الثالث

طلاقة القدرة في الكون

الله سبحانه وتعالى خلق ما فى الأرض جميعا . . وخلق لها الأسباب التى تتفاعل بها . . والقوانين التى تحكمها . . والله سبحانه وتعالى حين قال « كن » . . تم الخلق فى نفس اللحظة . . ولكن الأسباب تفاعلت فى السموات والأرض فى ستة أيام . . وهى ستة أيام كأيام البشر لأن القرآن يخاطب الإنسان . . ومن هنا فإن كل ما يتحدث عنه موجه إلى القدر البشرى . . والعقل البشرى . . سواء كان ذلك حاضرا أم مستقبلا مما يخفى على عقولنا الآن .

ولكن هذه القوانين والأسباب لا يمكن أن تكون قيدا على طلاقة القدرة . . ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لو قضى بالأسباب وحدها فى الأرض . . لعبد الناس الأسباب . . ونسوا المسبب أو الخالق . . لذلك بقيت طلاقة القدرة لتلفت الناس إلى أن الذى خلق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب فى قدرته . . وإنه يفعل ما يشاء . . عندما يشاء . . وقتما يشاء . . لذلك نجد إنسانا يكد ويكدح كثيرا . . ومع ذلك فهو ضيق الرزق . . وإنسانا آخر يعمل قليلا ومع ذلك فرزقه وفير . .

وإنسانا ضعيفا ينتصر بقدرة الله على إنسان قوى ظلمه . . تلك ليست القاعدة . . فالقاعدة هى الأسباب . . ولكن طلاقة القدرة . . تأتى . . وتأتى بشكل ظاهر لتلفت الناس إلى قوة الله وقدرته .

إن هذا الحديث لا يعجب أناسا كثيرين من أولئك الذين تعلقوا بالحياة المادية . . ذلك لأنهم ينسبون إلى الاسلام أنه دين يحض على التخلف بسبب الإيمان بطلاقة القدرة . . ويقولون إن قول الله تعالى **« يرزق من يشاء بغير حساب »** . . هو مدعاة لئلا يسعى الإنسان فى الرزق . . فما دام الله يرزق من يشاء بغير حساب . . فلماذا العمل والتعب . . ولماذا السعى وراء الرزق . . مع ما يورثه للنفس من مشقة ومما تكره . . وقبل أن نجيب على هذا السؤال . . نطرح قضية هامة معاصرة . . تفيق هؤلاء الناس إلى صدق قول الله وتجعلهم يعرفون يقينا صدق الآية الكريمة **« يرزق من يشاء بغير حساب »** . . هؤلاء

الذين يطعنون الدين فى هذه الآية . . يعبدون الأسباب ويتخذونها إلها . . فكل رزق مساو للعمل الذى يتم من أجله . . فأنت إذا عملت ليل نهار . . زاد رزقك . . وإذا عملت بضع ساعات مثلا قل رزقك . . وهكذا . . تلك هى القاعدة التى يتبعونها فى أن كل رزق يجب أن يكون مساويا للعمل الذى يتم من أجله .

نقول لهم . . إن هذا قد يكون صحيحا كقاعدة عامة . . ولكنه لا ينفى قول الله تعالى « **يرزق من يشاء بغير حساب** » . . ولنلاحظ فى الآية الكريمة قول الله « **من يشاء** » . . ولم يقل سبحانه وتعالى أرزق كل الناس بغير حساب . . بل لكل رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله من عمل وجهد له . . ولكن هناك المشيئة . . أو طلاقة القدرة . . تعطى بغير حساب . . أو بغير أسباب .

وإذا نظرنا إلى دول البترول . . تلك التى تملك القوة الحقيقية فى المال أو فى الرزق فى العالم أجمع . . إذا نظرنا إليهم . . نجد أنهم أكثر الناس رزقا أو مالا . . بل هم قد فاقوا فى الرزق تلك الأمم التى فاقتهم فى العمل والعلم . . وأصبحت تتجه إليهم ليدعموها فى الرزق . . فأمريكا وأوربا الغربية من أكثر الدول عملا وعلما . . ولكنها فى اقتصادها تتجه إلى دول البترول لتقترض منها البلايين . . لتدعم اقتصادها . . وتحاول أن تجذب أموال دول البترول لتستثمر فى بنوكها . . بل إن دول البترول تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان . . إذا هى سحبت دعمها الاقتصادى لها . . وأوقفت مشترياتها منها .

إذن من الذى يملك القوة الاقتصادية الحقيقية فى العالم . . إنها دول البترول . . فهى التى تملك المال أو الرزق حقيقة . . وهى التى تستطيع أن تتحكم ليس فى رزقها فقط . . ولكن فى اقتصاد العالم كله . . وذلك بشهادة كل الماديين وغير المؤمنين فى العالم .



● يرزق من يشاء

بقى بعد ذلك الشق الثانى من السؤال .. وهو إذا كانت دول البترول قد وصلت إلى هذا المركز الذى يتحكم فى اقتصاد العالم أجمع .. فلابد أنها قدمت حسب النظرية المادية من العلم والعمل ما يفوق ما قدمته دول العالم أجمع .. ولكن هذا غير صحيح .. فهذه الدول تقدم علما وعملا .. بل إن اكتشافات البترول قامت بها شركات غربية من الدول التى تخضع الآن اقتصاديا لدول البترول .. أى أنه حتى العمل القليل الذى تم .. تم بواسطة خبراء .. جاءوا وبحثوا .. وآلات ومعدات تكنولوجية استوردت من دول أخرى .. فكيف إذا لم يكن الله سبحانه وتعالى « **يرزق من يشاء بغير حساب** » .. كيف يمكن تفسير ما هو حادث .. لو أن القاعدة على اطلاقها أن الأسباب هى التى توجد الرزق لما كان ذلك يمكن أن يحدث .. ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية فى العالم .. وفى زمن قياسى .. لا يستطيع العمل والعلم خلاله أن يحدثا ذلك .. فلكى تتطور دولة .. أو عدة دول .. لتصبح أغنى دول العالم .. فإن ذلك يتطلب بجانب العمل والعلم فترة زمنية طويلة .. ولكن هنا .. لا الزمن .. ولا العلم .. ولا العمل تتناسب مع الرزق .. إذن من الذى أوجد هذا الرزق .. الله سبحانه وتعالى مصداقا للآية الكريمة « **يرزق من يشاء بغير حساب** » .

هنا يجب أن يتوقف الحكم المادى الغربى الذى يأخذ الأسباب على اطلاقها .. والذى يطعن فى الآية الكريمة « **يرزق من يشاء بغير حساب** » .. ويدعى أنها لا تتمشى مع تطورات العصر .. وتقدم العلم ومقاييس الزمن .. نقول له قبل أن تتسرع فى اتهامك .. تأمل فى الكون .. تجد فى كل مكان رزقا لمن يشاء الله بغير حساب .. هذا الرزق يلقى بالأسباب بعيدا .. لتأتى طلاقة القدرة وتعلن أن الله يفعل ما يشاء .. عندما يشاء .. وقتما يشاء .. وأنه إذا كانت الأسباب موجودة .. فإن طلاقة القدرة موجودة فى الكون .. وأعتقد أنه

لا أحد يستطيع أن يرد على هذه النقطة . . أو يدعى ظلما وبغير حق أن الآية الكريمة « يرزق من يشاء بغير حساب » . . ليست حقيقة كونية . . موجودة منذ خلق الله الأرض . . وستظل إلى قيام الساعة . . ونحن نطلب من كل من يستطيع الرد على ذلك أن يتكلم . .

نعود بعد هذه اللمحة إلى طلاقة القدرة . . لماذا أبقى الله سبحانه وتعالى طلاقة القدرة فى الكون ولم يتركه يتفاعل بالأسباب وحدها ؟ الذى حدث . . أن الأسباب . . أو المعطيات المادية . . تعطينا ظاهر الحياة . . وتنظم سيرها العادى . . ولكن إبقاء هذه الأسباب وحدها فيه بعد عن الله سبحانه وتعالى . . ذلك أن الله قد مكن بعض خلقه من الأسباب فى الأرض . . ليسير الكون . . وتمضى الحياة . . فهذا رئيس للدولة . . وهذا ميسر له أسباب النفوذ والسلطان . . وهذا ميسر له أسباب المال . . إلى آخر ما نراه فى الدنيا كلها . . وجعل الله العطاء ظاهرا من الأسباب ليسير الكون . . ثم ماذا حدث . . جاء إلى الكون أناس ماديون . . يحاولون أن يضلوا عن سبيل الله بالأخذ بالأسباب وحدها . . فهذا يملك المال وهو يستطيع منحى ما أريد إذا فعلت له ما يطلب . . وهذا يملك الجاه والسلطان . . وهو يستطيع أن يعطينى منه ما أريد إذا فعلت له ما يطلب . . وهكذا ظاهر الحياة الدنيا .

هب أن هؤلاء الناس لا يخشون الله . . انهم قد طلبوا منى أن أفعل ما يغضب الله من أجل منصب . . أو جاه . . أو مال . . فماذا يكون الموقف . . لو كنت أعبد الأسباب وحدها لنفذت لهم ما يريدون . . لأصل إلى حاجتى . . أو ما أريد . . فإذا قال لى صاحب المال . . أو صاحب النفوذ والسلطان اقتل وسأعطيك كذا وكذا . . لفعلت ذلك بلا تردد . . إحساسا منى بأن عطاء الأسباب فى يد هذا وحده . . وأن معصيته ستؤدى بى إلى التهلكة وتحرمنى من مقومات الحياة . . وأن طاعته ستجعلنى أعيش الحياة الرغدة التى أتمناها فى الدنيا . . وبهذا . . وبغير ما نظر إلى ما قال الله افعل ولا تفعل . . انطلق أنا

لأحقق هوى وشهوات . . ذلك الذى يملك المال أو الجاه أو السلطان . . ولو كانت تغضب الله . . وتمضى الأسباب لتؤدى إلى عبادة الفرد . . حيث يصبح الهوى الشخصى . . والغرض البشرى . . هما الأساس فى الحياة . . فيفسد الكون كله . . ولا تمضى الحياة وفقا لمنهج الله الذى يحمى الانسان الضعيف من بطش القوى . . والمظلوم من قدرة الظالم . . ولكنها تكون حياة وفقا لهوى النفس . . فيصبح الذى يحكم هو شهوة الحاكم وليس دين الله . .

هذه هى خطورة الأخذ بالأسباب وحدها . . وهى خطورة تعرض الكون كله للاختلال . . وتضيع موازين العدل . . وتكثر من البغى فى الأرض والفساد . . وما من أمة عبدت الفرد إلا وانتشر فيها الظلم . . وعم فيها الارهاب . . وضاع فيها الحق واستعبد فيها الإنسان . . تلك حقيقة تستطيع أن تدركها إذا نظرت إلى أى دولة نصب حاكمها نفسه إلها . يعبد من دون الله فى الأرض . . وهى حقيقة منذ بدء التاريخ فى عهد فرعون حتى عصرنا هذا . . والله سبحانه وتعالى قد شدد العذاب على أولئك الذين يعاونون هذا الحاكم . . ويفعلون له ما تهوى نفسه ويغضبون الله سبحانه وتعالى . . فخص آل فرعون دون سائر خلقه بأنهم منذ ساعة أن توفاهم حتى يبعثهم يوم القيامة يعرضهم على النار صباحا ومساء . . فقال سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾

سورة غافر آية ٤٦

أى أنه لم يختصهم فقط بأشد العذاب يوم القيامة . . بل زادهم بالعرض على النار غدوا وعشيا إلى يوم البعث . . وتشديد العذاب هنا متناسب مع شدة المعصية . . فعبادة الفرد هى اطلاق للشهوات والظلم والإفساد . .



● **الأسباب وحدها .. لا**

إذن فإطلاق الأسباب وحدها فى الكون .. يؤدى إلى عبادة الفرد .. وإلى ظلم عظيم .. ويجعل الناس يعبدون الأسباب .. وينسون المسبب ويخضعون لمن فى يده الملك والسلطان .. والجاه والمال .. ويتركون حكم الله .. لماذا ؟ لأن الأسباب هنا هى التى تعطى .. وهى التى تهب .. وما يهب ظاهرا يعبده الناس .. لأنه ظاهرا يعطى ويمنع .. ومن هنا كان لابد من طلاقة القدرة لتصحح المسيرة .. وتفيق الناس .. وتجعلهم يعلمون أن الله هو الذى أعطى الأسباب .. وأنه يستطيع كما أعطاها أن يأخذها .. وأن العبادة لله وحده .. وأن من ترك المسبب وعبد الأسباب .. فإنه قد ضل .. ونسى الله ..

ولذلك فنحن نتعجب من إنسان يملك أمور الدنيا كلها من قوة وجاه ومال وسلطان .. ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة فيقصيه عن ملكه ويبعده عن ماله .. ويصبح ذليلا طريدا .. تضيق عليه الأرض بما رحبت .. بعد أن كان يملك من أسباب القوة والملك ما يجعل الدنيا كلها تخضع له وتتقرب إليه ..

ونحن نرى كل يوم طلاقة القدرة فى العالم كله من ملك يذهب .. وملك يجىء .. ومن صاحب سلطان أو مال .. يصبح فقيرا معدما أو مطرودا فى ساعات .. ومن ذلك الذى كان يجلس على كرسى الوزارة .. ثم بعد ذلك بساعة نجده فى السجن والقيود فى يديه .. كل ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بطلاقة القدرة وقوة المشيئة .. ويؤكد لنا أن الأسباب التى أعطيت لأى بشر .. لتمكن له ملكا .. أو جاها .. أو سلطانا .. إنما هى أسباب معطاة من الله سبحانه وتعالى .. وليست باجتهاد هذا الشخص أو نابعة من ذاته .. بحيث إذا أراد الله .. زالت هذه الأسباب .. ولوكانت الأسباب ذاتية .. أى تنبع من الإنسان نفسه لبقيت له .. ولم يستطع أحد أن يأخذها منه .. ولكن كونها تزول عنه وفى لحظات دليل على أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وهبه هذه الأسباب .. وهو الذى أخذها منه ..

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور فى الدنيا . . بل هى فى أكبر الأشياء وفى أبسط الأشياء . . ولا تقتصر على فرد دون آخر . . بل يراها الجميع . . وكل منا صاح فى يوم من الأيام (ربنا كبير) . . أو (ربنا موجود) . . أو (ربك يمهل ولا يهمل) وهو يرى طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوما ضعيفا على ظالم قوى . . أو تقتص من إنسان ارتكب جريمة وحسب أنه نجا من العقاب . . أو لتعيد حقا ضاع من صاحبه وحسب الناس أنه ضاع إلى الأبد . . أو لتزيل ظلما . . أو لتقعد جبارا كان يؤذى الناس لتجعله عاجزا عن رد الأذى عن نفسه . . تلك كلها طلاقة القدرة وكلمة (يارب) التى تخرج من قلب مظلوم لا حول له ولا قوة يتبعها تدخل السماء لتزيل ظلما وتعيد حقا . . وتصحح الموازين فى الأرض . .

وإذا كانت طلاقة القدرة باقية فى الكون . . فأساس بقائها أنها تذكرنا بالله سبحانه وتعالى . . فإذا وعدك ظالم بأخذ أسباب المال مقابل أن تفعل له ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . وإنك إذا عصيت هذا الظالم وأطعت الله . . فإن الله يعطيك من الرزق ما لا يخضع للأسباب . . ويفتح لك أبوابا ما كنت تدرى عنها شيئا . . ومن حيث لا تعلم يأتيك الرزق الذى تريده . . وإذا طلب منك صاحب جاه أو سلطان أن تفعل ما يغضب الله فإن طلاقة القدرة تذكرك بأنك إذا أطعت الله أعطاك هذا المنصب أو خيرا منه . . وأنه إذا كان هذا الإنسان يملك الأسباب التى تجعلك تخاف ألا تصل إلى ما ترجوه . . فإن الله سبحانه وتعالى يملك طلاقة القدرة التى تعطيك بلا حساب . . وبهذا تعرف جيدا أن من يغريك : هذا بماله . . وهذا بسلطانه . . هما سببان زائلان . . وأن طلاقة القدرة لا يهمها هذه الأسباب . . ولا تتقيد بها . .

● **الله يذكرنا بقدرته**

على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة القدرة غيبا عنا . . ولا جعلنا نجهلها ولا نعرف عنها شيئا . . بل ذكرها فى مواضع كثيرة من القرآن

الكريم .. بحيث نجد فى كل سورة اشارة إلى طلاقة. قدرة الله سبحانه وتعالى .. فإذا قرأت قوله تعالى « **يختص برحمته من يشاء** » .. « **يعذب من يشاء** » .. « **يغفر لمن يشاء** » .. « **يهدى من يشاء** » .. « **يضل من يشاء** » .. « **يرزق من يشاء** » .. « **يعز من يشاء** » .. « **يذل من يشاء** » .. « **يؤتى الملك من يشاء** » .. « **ينزع الملك ممن يشاء** » .. « **إن الله على كل شيء قدير** » .. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا طلاقة القدرة فى هذه الآيات وفى عشرات من الآيات الأخرى فى القرآن الكريم .. وليست هذه الآيات إلا مثلا فقط على أن طلاقة القدرة يشار إليها فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .. ولو قرأت القرآن لوجدت أضعاف أضعاف هذه الآيات تنبئنا بطلاقة القدرة .. على أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل طلاقة قدرته سرا على عباده .. بل أنبأهم بطلاقة هذه القدرة ووجودها .. ولعل الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى « **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** » .. هو قمة طلاقة القدرة .. ذلك أن هذه الآية تنبئنا أنه ليس عند الله أسباب .. وأنه إذا كان قد خلق الأسباب لتنتظم الحياة على الأرض فهى ليست قيدا على مشيئته سبحانه وتعالى .. ولو كانت قيدا لقال لنا الله إنه إذا أراد شيئا هيأ له الأسباب ليكون .. ولكن كلمة « كن » معناها أنه لا دخل للأسباب هنا .. وأن الشيء يوجد بمجرد قول الله سبحانه وتعالى « **كن .. فيكون** » دون أسباب أو مسببات .. وخلق السموات والأرض وما فيهما كان بكلمة « **كن** » .. وخلق الإنسان كان بكلمة « كن » .. والله سبحانه وتعالى يقول : « **يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور** » ويقول : « **ويجعل من يشاء عقيما** » .. والحكمة هنا أنه رغم أن الله سبحانه وتعالى قد جعل السبب فى الذرية من ذكر وأنثى .. أى أنه لا يتم الانجاب إلا باجتماع الذكر والأنثى .. إلا أن طلاقة القدرة تجعل من يشاء عقيما .. أى أنه رغم اجتماع الذكر والأنثى لا يتم الانجاب .. وتتوقف الأسباب أمام مشيئة الخالق ..

هذا ما قاله الله سبحانه وتعالى عن طلاقة القدرة فى القرآن الكريم .. فإذا جئنا إلى التطبيق .. وجدنا أن طلاقة القدرة ظاهرة واضحة فى الرسل عليهم

السلام . . فمعجزاتهم كلها تأتى بطلاقة القدرة وليس بالأسباب . . فنوح عندما دعا ربه أن يهلك الكافرين . . فتحت ينابيع من السماء والأرض ليتم الطوفان . . ولم تفتح هذه الينابيع بالأسباب . . ولكنها فتحت بطلاقة القدرة . . وإبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار . . وخاصية النار هى الإحراق . . قال الله سبحانه وتعالى « **يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** » . . فتوقفت خاصية الإحراق فى النار فأصبحت لا تحرقه ولا تؤذيه . . هنا أيضا طلاقة القدرة . . وموسى عليه السلام عاش مع طلاقة القدرة طوال عهد نبوته . . نظرا للمعصية المستمرة لبنى إسرائيل . . فقد قال الله « **اضرب بعصاك البحر** » . . فانفلق . . وظهر قاعه ووقف الماء الذى من خاصيته الاستطراق . . وقف ساكنا بعيدا عن الأرض بقدرة الله سبحانه وتعالى . . وعبر موسى وقومه البحر . . وعندما حاول فرعون العبور عادت نظرية الاستطراق إلى الماء فأغرقته هو وجنده . . وعندما استسقى موسى قومه . . ضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . . ولو أن موسى عليه السلام قام بحفر حفرة ليبحث عن الماء . . لقلنا إنه اتخذ الأسباب . . ولكن لمجرد ضربه الحجر بعصا انفجر منه الماء . . لا عين واحدة . . ولكن اثنتا عشرة عينا . . ذهبت كل عين بمائها إلى القوم الذين قسمها الله لهم . . ورفع الجبل فوق بنى إسرائيل وضربهم الميت بأجزاء من البقرة بعد ذبحها . . أى ضرب ميت بميت . . وتخرج منهما الحياة . . ويبعث القتيل ليدل على قاتله .

● هو علىّ هين

كل هذه معجزات لا يمكن أن تدخل فيها الأسباب . . بل هنا تتجلى طلاقة القدرة فى أن يقول للشىء « **كن فيكون** » . . ثم تأتى بعد ذلك طلاقة القدرة فى زكريا ومريم . . حينما دعا زكريا الله أن يهبه غلاما « **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى** »

« **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** » هنا أخذت زكريا طلاقة القدرة فاهتز . . وسأل الله سبحانه وتعالى كيف يمكن أن يحدث

ذلك وهو شيخ كبير وامرأته عاقر أى أن الأسباب إذا طبقناها هنا لا يمكن أن تؤدى إلى مولد طفل . . حينئذ رد الله سبحانه وتعالى عليه « **هو علىّ هين . وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** » . . أى أن الله سبحانه وتعالى ذكر زكريا بطلاقة القدرة فقال له لا تعتقد أن هناك شيئا صعبا علىّ لأن الأسباب لا تأتى به . . بل من أهون الأشياء على قدرتى أن أفعل ما أريد . . ويتم ما أشاء بدون أسباب . . وإذا كان هذا صعبا على فهمك . . فتذكر خلقك . . « **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** » . . فإذا كانت قدرتى أن أوجد من العدم . . أفلا أستطيع أن أخلق بلا أسباب . .

وعندما دخل زكريا المحراب على مريم وجد عندها رزقا . . أى فاكهة فى غير أوانها . . فسألها « **أنى لك هذا** » أى من أين أتيت بهذه الفاكهة وهذا الطعام . . فقالت « **هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** » . . إشارة إلى أن طلاقة القدرة لا يستعصى عليها شىء . .

بل إن خلق المسيح عيسى ابن مريم كان من طلاقة القدرة . . والله سبحانه وتعالى خلق آدم من لا شىء . . وخلق حواء من آدم . . أى أنثى من ذكر بلا أنثى . . وخلق من ذكر وأنثى . . ولاتمام مراحل الخلق بقى أن يتم الخلق من أنثى بدون رجل . . وقد تم ذلك فى عيسى ابن مريم عليه السلام .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الاسراء والمعراج نجد أنها معجزة كبرى دالة على طلاقة القدرة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم أسرى به من مكة المكرمة إلى بيت المقدس . . حيث صلى بالأنبياء . . وهى طلاقة فى القدرة أن يصلى حى بأولئك الذين انتقلوا إلى جوار ربهم منذ مئات السنين . . ثم بعد ذلك انطلقت به طلاقة القدرة ليخترق السموات السبع . . ويصل إلى سدرة المنتهى . . وهذا الانطلاق كان فيه تغيير لطبيعة الأشياء حتى يمكن لرسول الله أن يصل إلى سدرة المنتهى . . بل إن الوحى نفسه من طلاقة القدرة أن يلتحم الملك بإنسان ليتم تبليغ القرآن الكريم . .

كل هذه الأشياء فى مجموعها . . هى تطبيق حى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . فالله لم يذكر لنا طلاقة القدرة فى القرآن الكريم . . دون أن يعطينا أمثلة على التطبيق . . متواكبة مع رسله . . تؤيدهم هذه القدرة بالمعجزات التى رواها لنا القرآن الكريم . .

على أن طلاقة القدرة لم تتوافر للرسل وحدهم . . بل هى فى كل جزء من الحياة . . وإذا أردنا أن نتأمل طلاقة القدرة فى مظاهر الدنيا . . فلنأخذ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

سورة البقرة آية ٢٦

إذا تأملنا هذه الآية الكريمة نجد أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلا ببعوضة ، والمثل هنا كالأمثلة فى القرآن الكريم لا تضرب جزافا . . ولكن لحكمة بالغة . . حين ضرب هذا المثل قال الكفار ماذا أراد الله بهذا مثلا ولم يفهموا شيئا . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضرب مثلا بدقة الخلق . . فإن خلق البعوضة المتناهية فى الصغر بكل الوظائف اللازمة لها فى الحياة . . دقة فى الخلق تستوجب خالقا قادرا . . فهذه البعوضة الصغيرة الحجم . . قد جعل الله فيها كل أسباب الحياة . . وما فوقها . . أى ما أصغر منها وأدق فى الخلق . . خلقه الله ووضع فيه أسباب الحياة . . واستمرار الحياة .

● **لا تستهينوا بالخلق . .**

وهنا حكمة بالغة . . ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا ألا نستهين بالمخلوقات الدقيقة التى خلقها لصغر حجمها وضآلتها . . بل انه كلما زادت دقة المخلوق كان بأسه شديدا . . وكلما زادت ضخامة المخلوق فليس هذا بالضرورة دليلا على القوة . . وإذا أخذنا بهذه النظرية . . وعدنا إلى بداية الخلق . . نجد مثلا أن الحيوانات الضخمة التى عاشت فى القرون الأولى على الأرض كالديناصور مثلا قد هلكت وانقرضت ولم تستطع أن تعيش العصر الجليدى الذى ساد الكرة الأرضية . . هذه الحيوانات المرعبة التى كانت تزلزل الأرض . . لم تستطع أن تتغلب على الطبيعة . . بينما البرغوث والنملة مثلا قد عبرا هذه العصور حتى عصرنا هذا . . ويقول العلماء وهم يفسرون هذه الظاهرة . . إن الحيوانات الضخمة فى أجسامها كانت تملك عقولا صغيرة . . لم تمكنها من التحايل على البيئة ولذلك هلكت . . هذا هو تفسير العلم . . ولكن التفسير الإيمانى يقول . . ان الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن البقاء لا يخضع لعنصر القوة . . وإنما يخضع لعنصر القدرة وأن الأشياء القوية . . أو ذات القوة الهائلة التى تظن أنها ستسود الأرض إلى الأبد . . تأتى قدرة الله سبحانه وتعالى فتهلكها . . بينما تبقى الأشياء الصغيرة التى لا ترى بالعين المجردة . . فالفيروس مثلا الذى لا يستطيع أحد رؤيته حتى الآن لتناهى حجمه فى الدقة . . أقوى من الفيل والأسد وعقل الإنسان وكل قدرات المخلوقات على الأرض . . فهو يستطيع أن يقضى على أى من هؤلاء ، فالكل يقف عاجزا أمامه . . وهو يعيش ملايين السنين مع ضآلة حجمه وتناهيه فى الصغر . . وهذه الفيروسات تستطيع أن تسلب الحياة من شعب بأسره . . ومن أمة تختال على الناس بقوتها . . فيسلط الله سبحانه وتعالى هذه الفيروسات التى لا ترى وتنتشر بين أفراد هذه الأمة كوباء يفنيها . . هنا طلاقة القدرة التى تعطى ذلك الشيء المتناهى فى الصغر قوة هائلة تجعله يهلك أقوى الأقوياء فى الأرض . . دون أن يستطيع القوى أن يفعل شيئا . . ويأتى ذلك لنؤمن بأن القوة هى لله فلا نغتر بقوتنا الظاهرية . . ونحسب

أنه لا يوجد فى الأرض من يغلبنا . . وأدق مخلوقات الله تستطيع أن تسلبنا الحياة فى ساعات . . وفى ذلك قضاء على الغرور فى النفس البشرية وتثبيت للإيمان بأنها بدون قوة الله وتأييده لا تساوى شيئا .

على أن الله سبحانه وتعالى . . قد أعطانا كل هذه لحكمة بالغة . . وأوجد لنا ما يثبت طلاقة قدرته علما وعملا . . وقولا وفعلا . . حتى يمضى موكب الإيمان فى الحياة فى نفوس مطمئنة إلى قوة الله . . لا تزلزلها الأحداث . . ولا تشقيها الأسباب .

والنقطة الأولى فى الحكمة البالغة فى طلاقة القدرة هى إيمان بأن الله موجود إذا عجزت الأسباب . . وهذا الإيمان هو الذى يبقى الإنسان المؤمن مطمئنا إلى أن الله سبحانه وتعالى لن يتخلى عنه مهما كانت الأسباب تقول ذلك . . وإذا كانت الدول المادية التى لم يدخل فيها الإيمان تعانى من شىء وهو الاحساس بالخوف واليأس من الحياة . . ورغم كل ما فى هذه الدول من تقدم مادى . . وأمن وأمان . . فإن كل فرد فيها يعيش فى قلق يمزقه . . لماذا . . لأن كل إنسان مادى يعبد الأسباب . . دون المسبب . . ويعتقد فى القدرة البشرية دون قدرة الله سبحانه وتعالى . . فإذا فصل من وظيفته لا يقول إذا أغلق الله بابا للرزق أمامى فسيفتح لى عدة أبواب . . ولا يقول ان هذا ابتلاء من الله ليمتحننى ، وأن مع اليسر يسرا ، ولا يقول إن الذى آمنت به وعبدته لن يتخلى عنى أبدا . . فذلك منطق الإيمان . . ولكن منطق المادية يجعله يرى المستقبل أسود . . ويحس أن الدنيا أغلقت فى وجهه . . وأنه لن يجد بابا للرزق . . و أنه قد انتهى تماما . . ومن هنا فهو بيأسه من رحمة الله يلجأ فى كثير من الأحيان للانتحار ويصاب بالجنون . . لماذا . . لأنه يعتقد أن البشر الذى منعه هو الذى يملك كل الأسباب . . وأن الله سبحانه وتعالى لا يملك شيئا .

وإذا مرض الإنسان المادى . . بمرض ميئوس من شفائه . . فقد الأمل فى المستقبل . . ولم يقل إذا عجزت الأسباب فإن رحمة الله لن تتخلى عنى وسيجد لى

سبيلا للشفاء . . أو يقول ان الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفينى حتى ولو عجزت الأسباب . . بل هو فى عبادته للأسباب يتخذها إلها ، فإذا عجزت الأسباب فإن إلهه قد تخلى عنه . . ولم يعد أمامه إلا مصير أسود .

● **نجاة للمؤمنين**

الله سبحانه وتعالى . . يريد أن ينجى المؤمنين من هذه الحياة الشقية . . فهو وعدهم بالحياة الطيبة . . والحياة الطيبة ليس فيها الشقاء البشرى الذى تفرضه المادة على الإنسان . . بل فيها رحمة الله سبحانه وتعالى . . تلك الرحمة التى جعلت طفلا كإسماعيل عليه السلام . . يضرب الأرض بقدمه الصغيرة فيخرج ماء زمزم . . بعد أن هرولت أمه عليها السلام بين الصفا والمروة سبعة أشواط وهى تبحث عن الماء . . تأتى رحمة الله لتجعل الماء يخرج من ضربة بقدم طفل صغير . . فيتشقق الصخر ويخرج منه الماء .

تلك هى المعجزة الكبرى التى يريدنا الله أن نعيش معها . . فإذا وقفت أمامنا الأسباب فأمامنا الطلاقة الكبرى . . نلجأ إليها . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه » . . وإذا تأملنا هذه الآية . . نجد أن الله سبحانه وتعالى استخدم لفظ (المضطر) المضطر ذلك الذى تخلت عنه أسباب الدنيا ووقف كل شىء حائلا بينه وبين ما يريد . . حينئذ لا تجدى الأسباب معه . . فيقول الله سبحانه وتعالى . . إذا تخلت عنك الأسباب فلا تيأس ولا تعتقد أن كل شىء قد ضاع . . بل ارفع يديك إلى السماء وقل (يارب) وساعتها تتفتح أبواب السماء . . وتتدخل القدرة . . لتحقق لك ما تريد .

وهذا ليس غريبا عنا . . عن حياتنا العادية . . وليس كلاما يقال دون أن يكون له واقع فى الحياة . . فلو استعرض كل منا شريط حياته لوجد أن فيه طلاقة القدرة . . كم منا واجه مشاكل بلا حل . . وربما ظل ساهرا ليالى

طويلة . . يقلب عقله . . ويعمل فكره . . ولا يستطيع أن يصل إلى الحل . . ثم فجأة يتغير كل ما حوله ليجد الباب مفتوحا من حيث لا يدرى ولا يحتسب . . ويأتى الحل ميسرا سهلا من أشياء لم نكن نتوقعها . . ولا نظن أنها ستحدث . . كل منا مر بذلك . . وكل منا رأى فى حياته مرة أو مرات قدرة الله سبحانه وتعالى وهى تزيل ظلما ما كان يحسب أن يزول . . أو تحل مشكلة لم يكن يعتقد أن لها حلا . . أو تأتى بشىء لم يكن يحلم به . . كل هذا حدث لنا جميعا .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يملأ النفس المؤمنة برحمته . . بحيث تواجه مصاعب الحياة وفى قلبها شعلة ايمان لا تنطفىء . . هذه الشعلة هى أمل متصل بالله سبحانه وتعالى . . أمل لا ينطفىء أبدا . . حينئذ يحس الإنسان المؤمن بأن كل الصعاب التى يواجهها لن تقضى عليه . . ولا تمس أمنه وأمانه . . لماذا . . لأنه يتذكر قول الله سبحانه وتعالى « هو على هين » . . فالصعاب مهما بلغت فهى على الله شىء هين . . وهى أمام قدرة الله سبحانه وتعالى لا شىء . . فلا يدخل اليأس إلى قلبه أبدا . . ولا تحطمه الحياة فتدفعه إلى الجنون والانتحار . . ولعل ارتفاع نسبة الجنون والانتحار فى الدول المادية . . وانخفاضها فى الدول التى تتمسك بالدين هما خير دليل على الحياة الطيبة التى يعطيها الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين .

والنقطة الثانية هى أن طلاقة القدرة تفسر لنا ما يحدث فى الكون من أشياء لا تتفق مع الأسباب . . فنحن نعيش فى كون تحكمه طلاقة القدرة مع الأسباب . . ولذلك فاننا نرى أحيانا أن انسانا يملك كل أسباب القوة من جيش وشرطة وأجهزة دولية . . ثم يأتى إنسان ضعيف لا حول له ولا قوة . . فنجد قدرة الله سبحانه وتعالى تأتى إلى هذا القوى فتزيله من مكانه . . وتأتى بهذا الضعيف وتضعه مكانه . . ذلك يحدث أمامنا فى العالم كل يوم . . ولو طبقنا

الأسباب لقالت عكس ما يحدث . . ولكن الأسباب شيء . . وطلاقة القدرة شيء آخر .

فإذا جئنا لأمة كافرة . . كالاتحاد السوفيتى مثلا نجد الله سبحانه وتعالى يسلط عليها ما يهلكها . . أحيانا بين يوم وليلة . . وأحيانا على فترة من الزمن . . فإذا نظرنا إلى الاتحاد السوفيتى بعد أن كان هو مخزن الحبوب فى العالم . . وبعد أن كانت أوكرانيا تنتج من القمح ما يزيد على حاجة الاتحاد السوفيتى بكميات هائلة . . نجد أن البركة قد رفعت منها . . وأصبح الاتحاد السوفيتى يستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج . . ولا يجد رغيف الخبز الذى يقتات به وانتهى الأمر به إلى الانهيار والتفكك إلى دويلات صغيرة متناحرة . . وكذلك نجد فى كل الدول التى تحارب الدين . . تملؤها الكوارث . . ويذهب عنها الأمن والأمان . . ويصبح رزقها ضيقا . . وأمنها معدوما . . والشقاء يخيم على كل من يعيش فيها كل ذلك يتم بطلاقة القدرة دون الأسباب التى ربما قد تؤدى إلى عكس ذلك . . بل أنه فى بعض الأحيان . . تقوم هذه الدول بمشاريع تجند لها دعايتها . . وتقول ان بها خيرا وفيرا . . وأنها ستحقق الرفاهية والعيش الرغد . . ثم تتم هذه المشاريع فإذا بها تأتى بعكس ما قيل عنها تماما . . وإذا بها وبال . . فى وبال . . فى وبال . .

وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى تجعله هو الوحيد . . وتجعل كل ما حوله متغيرا . . وتأتى أنت لترى الدول الكبيرة التى لم تكن تغرب عنها الشمس وقد تضاءلت وربما انمحت من خريطة الكون . . وربما أصبحت عاجزة عن حماية نفسها . . مع أن الشعب هو الشعب لم يتغير . . والقدرات هى القدرات لم تتغير . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى غير كل شيء .

● **كل شيء له مولد**

والنقطة الثالثة ان كل شيء فى الكون قد جعل الله له مولدا فى طلاقة قدرته . . فطلاقة القدرة هى التى تكشف أسرارا لكل جيل أخفيت عن الجيل

الذى سبقه . . فالله له عطاء جديد لكل جيل من البشر . . وإذا أردنا أن نستطرد فى شرح هذه النقطة . . نقول ان بعض الناس يعجزه تفكيره عن فهم تفسير للآية الكريمة « وإذا مرضت فهو يشفين » . . وبعضهم لا يذهب إلى الطبيب تطبيقا لهذه الآية . . والبعض الآخر يذهب إيمانا منه بأن الشفاء يحدث على يد الطبيب . . ولكن الذى يحدث أن لكل شفاء أجلا . . فإذا جاء الأجل أو الموعد كشف الله للطبيب المرض فيتحدد الداء والدواء ليتم الشفاء . . والذى يحدث عادة . . وهذا فى حياتنا كلنا . . اننا نذهب إلى أشهر الأطباء وأكثرهم علما وفنا فلا يتم على يديه الشفاء . . ثم نذهب إلى طبيب صغير أو مبتدىء فيعرف الداء ويكتب الدواء . . ونحن حين يحدث هذا نتعجب . . ذلك لأن الذى حدث يخالف الأسباب فى الأرض . . فالمفروض أن الطبيب الأكثر علما هو الذى يكتشف الداء بحكم علمه وخبرته . . والطبيب المبتدىء لا يمكن أن يكتشف ما عمى على أستاذه . . تلك هى أسباب الأرض . . ولكن الحقيقة . . أو ما يحدث . . وما نشاهده جميعا ونعرفه هو عكس ذلك . . والحقيقة أن علم الطبيب المبتدىء لا يمكن أن يزيد على علم أستاذه . . ولا خبرته . . ولكن الذى حدث أن وقت الشفاء قد جاء . . فيسر لنا الله الطبيب الذى عرف الداء وكتب الدواء . . وإذا لم نذهب نحن إلى الطبيب فأحيانا يحدث ذلك بطريق ما نسميه « الصدفة » وهو أن يجمعنا مكان مع أحد الأطباء . . ويدور الحديث عن المرض ويقوم الطبيب بتشخيص الداء وكتابة الدواء .

وكما يقال عن المرض . . يقال عن كل كشف من أسرار الأرض . . يريد الله سبحانه وتعالى أن يمكن منه خلقه . . فكل كشف له ميلاد عند الله وفى علمه . . والذى يحدث أنه عندما يأتى وقت هذا الميلاد إما أن يصادف هذا الكشف عالم يبحث عنه . . فيكشفه الله سبحانه وتعالى له . . وإذا لم يصادف هذا الكشف عالم يبحث فى نفس الموضوع كشفه الله سبحانه وتعالى لعالم يبحث فى موضوع آخر . . ولذلك نرى كثيرا من الأبحاث العلمية التى تبدأ بالبحث عن كشف ثم تنتهى إلى كشف آخر مختلف تماما . . لم يكن يدور فى ذهن العالم . . بل حدث

بطريق ما نسميه الصدفة . . ولو تتبعنا الكشوف العلمية وما يحدث فيها . . لوجدنا أن اكتشافات كثيرة قد تمت دون أن يكون هناك باحث عنها بالذات . . بل بدأ البحث عن شيء وانتهى إلى شيء آخر .

وهكذا يكون العطاء فى كثير من الأحيان بمولد وميقات من الله سبحانه وتعالى . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يطلعنا على ذلك . . فأحيانا نأخذ بالأسباب . . وأحيانا نرى أن هناك أشياء يحار العقل فيها فننسبها للصدفة . . أو للحظ . . أو لكل هذه المسميات .

النقطة الرابعة أن الإيمان بطلاقة القدرة هو أساس الإيمان وركيزته والذى لا يؤمن بطلاقة القدرة لا يمكن أن يؤمن بالغيب . . فالإنسان الكافر . . أو الذى ينكر وجود الله يأخذ بالأسباب وحدها . . فما هو ظاهر أمامه . . يصدقه . . وما هو غيب عنه يكذبه . . فإذا حدثته عن الجنة والنار . . والثواب والعقاب . . وما أعده الله سبحانه وتعالى للمؤمنين من عباده سخر منك . . ولكن الذى يؤمن بطلاقة قدرة الله هو الذى يفهم معنى أنه سيكون فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ولذلك فإننا لكى نؤمن بالآخرة . . ونؤمن بقدرة الله على بعث الموتى . . ونؤمن بما يعدنا الله من ثواب أو عقاب . . يجب أن نؤمن أولا بطلاقة القدرة . . ونعرف أن الله سبحانه وتعالى لا تحده قيود ولا حدود . . ولا شيء عنده يقع تحت كلمة مستحيل . . وأنه مادام قد وعد . . ووعده الحق . . فإنه سيتحقق . . وأنه قادر على أن يخلق جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . وقادر على أن يعطى الإنسان نعيما أبديا . . ويعطيه عذابا أبديا . . وقادر على أن يسجل أعمال كل البشر . . وعلى أن يواجههم بأعمالهم فى الآخرة . . تلك كلها لا تخضع لقانون السببية . . ولكنها تخضع لطلاقة القدرة التى حرص الله سبحانه وتعالى على أن يبينها لنا قولا وفعلا . . ويضعها فى حياتنا اليومية . . فنحن نعيش

مع طلاقة القدرة كل يوم ليزداد إيماننا بالغيب الذى حجب عنا .. ونحن حين نجد طلاقة القدرة التى تصطدم مع العقول وتحيرها .. إنما يزداد إيماننا بأن الله سبحانه وتعالى فوق قدرة العقول كلها .

● **أساس إيمانى**

تلك حقيقة يجب أن نتنبه إليها .. فطلاقة القدرة أساس إيمانى لكل شىء أخبرنا الله عنه .. وجعله غيبا عنا .. وكل شىء يكشفه الله سبحانه وتعالى لنا جيلا بعد جيل .. ذلك أن هذه الأشياء التى تزيدنا يقينا بقدرة الله .. يجب أن تزيدنا خشوعا له .. فكل يوم يضاف إلى علمنا أسرار كانت موجودة فى هذا الكون .. ولم نكن نعرف عنها شيئا .. وهذه الأشياء فى كثير من الأحيان تصحح مفاهيم خاطئة كانت موجودة على أساس أنها علم أرضى .

ولو أننا قمنا بحصر ما كشفه لنا الله سبحانه وتعالى من أسرار فى الكون .. لوجدنا أن هذا الجيل يجب أن يكون أكثر عبادة وخشية لله من الأجيال التى سبقته لأنه وصل إلى أسرار فى الكون جعلته يعرف قدرة الخالق وعظمته .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾

سورة يونس الآية ٢٤

ومعنى هذه الآية الكريمة .. أن الله سيكشف من أسرار كونه للبشر ما يريهم به دقة صنعه وإحكام خلقه .. ولكن البشر لن يأخذوا هذه الأشياء على هذا المعنى .. بل سيركبهم الغرور .. ويحسبون أنهم هم الذين صنعوا .. وهم الذين اكتشفوا .. ويجعلهم هذا الغرور يظنون أنهم قد وصلوا إلى العلم الذى يمكنهم من أن يتحكموا فى كل شىء فى الأرض .. حينئذ يأتى قضاء الله ..

وتقوم الساعة . . ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة (ظن) لحكمة بالغة . . ذلك أن الله هو الذى سخر للإنسان كل ما فى الكون . . وهو الذى كشف له عن الآيات فى هذا الكون . . ولكن بدلا من أن ينسب الإنسان الفضل لصاحبه . . نسبه لنفسه . . ليس حقيقة . . ولكن (ظنا) . . فالعلم كلما تقدم . . اعتقد الإنسان أن هذا عطاء من ذاته . . وأنه هو الذى سخر هذه الأشياء لنفسه . . وهذا الظن يجعله يعتقد أنه قد سيطر على الأرض تماما . . وأصبح قادرا عليها وعلى كل القوى فيها . . حينئذ تأتى الساعة . . وتتعطل القوانين كلها . . ويعرف الإنسان أن ما وصل إليه هو من فضل الله . . وأن الله إذا كان قد خلق لنا الأسباب وجعلها خاضعة لنا . . فيجب ألا نغتر بها وننسى طلاقة القدرة . .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

سورة فصلت الآية ٥٣

والقرآن كلام متعبد به . . لا يتغير ولا يتبدل حتى قيام الساعة . . ولذلك فإن كل جيل سيقرأ « سنريهم » . . و(السين) مستقبلية . . والمعنى أن كل جيل يرى ما لم يره الجيل الذى سبقه . . ليس فقط من آيات الله فى الأرض . . بل فى الآفاق . . وفى النفس البشرية . . ولعل التقدم العلمى فى كشف الآفاق . . وفى معرفة أسرار الجسم البشرى يجىء مصداقا لهذه الآية الكريمة . . ويجب أن نعرف أنه لا يقدر على العطاء المستقبلى إلا الله سبحانه وتعالى فلا يمكن مهما بلغت أنا من العلم أن أتنبأ بما سيحدث مستقبلا . . ولأجيال قادمة . . ولكن الله سبحانه هو القائل . . وهو الفاعل . . ومن هنا فإنه يستطيع أن يعطينا صورة يقينية عن المستقبل .

والنقطة الخامسة أن الإنسان حين يتمسك بالأسباب . . فإنه يعطى نفسه قدرات ليست فيه . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حين يرى عبدا من عباده

يأخذ بالأسباب . . فإنه يتركه ليتفاعل مع الأسباب التى اعتقد أنها قد أعطته . . وفى هذه الحالة تسقط عنه الأسباب فيذهب العطاء . . ولو أن الإنسان كان قد ملك الأسباب حقيقة وهى التى تعطى ، لما زالت عنه هذه الأسباب وذهب العطاء . . ولقد أعطانا الله سبحانه وتعالى مثلا لذلك فى القرآن الكريم . . فقارون قال : « **إنما أوتيته على علم عندى** » . . وصاحب الجنتين فى سورة الكهف قال : « **ما أظن أن تبيد هذه أبدا** » . . والذين أرادوا أن يأخذوا حق الفقراء فى ثمر الحديقة . . قالوا : « **لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** » . . وكان فى هذا كله الهلاك . . فخسف بقارون وبداره الأرض . . وأحيط بثمر الجنتين . . وذهب خير الحديقة . . وأصبحت كالصريم . . كان ذلك كله سببا فى زوال النعمة . . لأن المنعم عليه أخذ ظاهرية الأشياء دون حقيقتها وهى طلاقة القدرة التى أعطت . . والتى أخذت .

وطلاقة القدرة تعنى أن الله واحد أحد . . والقول بأن الله أحد . . معناه أنه يجمع من الصفات ما لا يمكن أن تجتمع لبشر أو لمخلوق . . بل للخالق وحده سبحانه وتعالى . . وهو الذى يملك وحده طلاقة القدرة . . يقول للشيء كن فيكون بلا أسباب . . وكل منا له حظ فى العلم . . ولكن الله سبحانه وتعالى عليم . . أى لم يعلمه أحد . . وإنما العلم من ذاته . . ويعلم ما لا نعلم . .

إذن فقولنا (أحد) . . هو تنزيه لله سبحانه وتعالى أن يكون هناك شبيه له . . فالشيء الواحد ممكن أن يكون له شبيه . . والشيء الواحد ممكن أن يكون من مجموع الأشياء . . فأنت تقول عن عدة أشخاص إنهم يتحدثون بلسان واحد . . أى أن كل واحد منهم . . يكرر نفس الكلام الذى يقوله زميله . . ولكن « الأحدية » تنفى هذا كله عن الله . . وأنت تقول للشيء المكون من عدة أجزاء شيء واحد . . فالكرسى مثلا مكون من خشب ومسامير وجلد . . ولكنه شيء واحد . . هو كرسى . . والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك تماما . . ذلك أن الله لا يمكن أن يكون مكونا من أجزاء متداخلة . . تبارك وتعالى وتنزه عن هذا . . وإلا فأى واحد من الثلاثة خلق الآخرين . . ومن الذى وجد أولا . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذى وجد أولا . . فباقى الأجزاء هى من خلقه وليست جزءا منه . . ومن هنا فإنها تصبح من مخلوقات الله . . وليست جزءا من الذات . . والقول بأن الله سبحانه وتعالى . . مكون من عدة أجزاء ، ينفى الكمال عن الله إذا انفصلت ما يقال عنها أجزاء متداخلة عن الله سبحانه وتعالى . . إذن فالقول بأن الله واحد . . هو قول فيه تجاوز . . ولكن صحيح القول أنه أحد . . ليس كمثله شيء . . ولا يحتاج لأى خلق من خلقه . . بل هو الله الأحد الذى لا شبيه له . . ولا يرقى شيء مهما بلغ إلى قدرته وعظمته . .

● **الله الصمد**

والله هو الصمد . . أى القوى الذى يقصد لذات قوته . . أى أن الله سبحانه وتعالى وحده الأحد الذى ليس كمثله شيء . . الصمد الذى يقصد إليه فى الحوائج . . فأنت تتجه إلى الله سبحانه وتعالى إذا أردت شيئا واستعصى عليك . . وأنت تتجه إليه إما اضطرارا . . وإما اختيارا . . وهناك خلق مسخر لله لا اختيار لهم فى الاتجاه إلى الله أو لغير الله . . فالملائكة مثلا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . ليس اختيارا . . ولكن اضطرارا . . فهم مخلوقون لهذا . . وكذلك الشمس والقمر . . وكل الأشياء التى سخرها الله سبحانه وتعالى . . فهى مسخرة لما خلقت له . . فالشمس لا تستطيع أن تختار يوما تشرق ويوما تغيب . . والأرض لا تستطيع أن تقول سأتوقف عن الدوران . . والنجوم والقمر والجبال والبحار . . كل شيء مسخر لا يملك قدرة الاختيار . . ومن هنا فهو متجه إلى الله . . يقوم بدوره الذى خلقه الله سبحانه وتعالى له . .

يأتى بعد ذلك الإنسان . . وقد أعطاه الله حرية الاختيار . . وجعله قادرا على أن يفعل أو لا يفعل . . وأن يتجه إلى الله . . أو يحاول انكار وجودالله . . وذلك فى فترة حياته الدنيا فقط . .

إذن فقول الله سبحانه وتعالى « الله الصمد » وضع أمامنا الصورة الصحيحة للعقيدة . . فمادام الله أحدا . . فليس هناك غيره . . ومادام الله الصمد . . فهو مقصود فى الحوائج . . ليس هناك من يقوم بديله . . فلا وجود على الحقيقة إلا وجوده . . ولا فاعل إلا فعله . . والله سبحانه وتعالى لا ينقص من ملكه أن يعطى كل إنسان ما يشاء . . ولا أن يكفر الناس جميعا . . فالله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين . . وهو القادر على أن يهب ويأخذ . . وأن يجعل الضعيف قويا . . وهذا هو الفرق بين عطاء الله وعطاء البشر . . وفرق آخر . . أن الإنسان إذا أعطى لا يستطيع أن يسترد عطاءه . . فأنت إذا أعطيت شخصا مالا . . وتنكر لك . . فأنت لا تستطيع أن تسترد هذا المال مادام هذا المال قد أصبح مملوكا له . . وأنت إذا كنت طبيبا وأعطيت الإنسان دواء أزال مرضه ثم رفض أن يدفع لك نفقاتك فأنت لا تستطيع أن تسلبه نعمة الصحة . . ولكن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطى ويأخذ . . فهو إذا أعطى النعم وكفر الإنسان بها . . يستطيع أن يجعل الغنى فقيرا . . ويجعل السليم مريضا . . وإذا قابل الإنسان النعمة بالشكر . . زاده الله وأعطاه . .

والله سبحانه وتعالى . . إذا أعطى إنسانا أسباب الحكم فى الأرض . . فبغى على الناس وظلمهم . . فإنه يسلط عليه من هو أظلم منه . . فينتقم منه . . فالله لا يسلط على الظالم رجلا طيب القلب مؤمنا . . ذلك أن اللين والرحمة . . وحب العفو . . وكظم الغيظ . . ومواجهة الاساءة بالإحسان . . وهو ما أمر به الله . . يقف بين هذا العبد المؤمن . . وبين القصاص العادل من الظالم . . ولكن يسلط على الظالم من هو أشد منه ظلما . . حتى يكون القصاص رهيبا . . ويأتيه الله من حيث لا يدرى ولا يحتسب . .

وطلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى هى نعمة لا تبارى على خلقه . . فالله سبحانه وتعالى لا هوى له . . كلنا عبيده . . لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . ومن هنا . . فإن طلاقة القدرة تصحح المسيرة فى الكون . . ذلك أن

الله دائما مع الضعيف ضد القوى .. ومع العاجز ضد القادر .. ولو لم توجد طلاقة القدرة .. وبقيت الأسباب وحدها تعطى .. لملأ الفساد الأرض .. ذلك أن الذى يأخذ بالأسباب يمتلىء غرورا بقدرته على خلق الله .. ويأخذ حق الغير .. ويحاول أن يملك ما لا يستطيع أن يفنيه أو يستخدمه طول حياته .. ومن هنا فإن قضية الحياة نفسها تفسد .. ولكن الله سبحانه وتعالى يزيل الأسباب .. فيصبح القوى ضعيفا .. والغنى فقيرا .. والعزيز ذليلا ..

إذن فالله سبحانه وتعالى خلق الكون .. ومنح كل من فى الكون رزقا وعطاء .. الكافر منهم والمؤمن .. والعطاء من الله سبحانه وتعالى لكل فرد هو ابتلاء .. سواء أكان هذا العطاء خيرا أم شرا .. فأحيانا يكون ما نحسبه شرا هو خير لحياتنا من مئات الأشياء التى قد نفرح عندما تحدث .. والله سبحانه وتعالى قد أعطانا الأسباب لتسير الحياة فى الكون .. ولكن فى نفس الوقت .. بقيت طلاقة القدرة لله سبحانه وتعالى .. ذلك حتى لا ننسى الله ونعبد الأسباب .. فالكون يمضى كله بالأسباب .. ثم تأتى طلاقة القدرة فى حدث من الأحداث .. لتلفت الناس إلى أن معطى الأسباب موجود وقادر .. وأن الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن تكون قيدا على قدرته .. وأننا يجب أن نلتصق فى حياتنا بالله .. وليس بالأسباب التى مكن الله فيها عددا من خلقه .. وفى هذه الحالة نتذكر أن ما أجراه الله علينا على يد عبد من عباده .. إنما هو من الله أولا .. قسمه الله لنا .. ثم أجراه على يد هذا العبد .. فلا ننسى المنعم ونعبد السبب .. ولنعلم أيضا حينما يحيط بنا اليأس .. ونصل إلى شيء لا تستطيع الأسباب أن تجد له حلا .. وتقف قدراتنا عاجزة أمامه .. نتذكر أن طلاقة القدرة موجودة .. وفى هذه الحالة لا يدخل اليأس إلى قلوبنا أبدا .. لأن قدرة الله بلا حدود ولا قيود ..

وطلاقة القدرة تصحح المسيرة .. وتذكر الناس بعدم الابتعاد عن الله .. وتتدخل لتنصر المظلوم على الظالم .. وغير القادر على القادر وتقتص للضعيف من القوى ..

والله أحد لا شريك له ، قادر على أن يفعل ما يشاء وقتما يشاء . . مقصود فى كل الحوائج . . بيده الخير كله . . يستطيع أن يعطى كل إنسان حاجته . . دون أن ينقص ذلك مما عند الله شيئا . . وهو فى قوته لا يستعصى عليه أحد . . مهما بلغ جاهه أو سلطانه . . ولذلك فإننا يجب ألا نخاف الدنيا كلها . . مادمنا مع الله . . ومادمنا على الحق . .

والله أحد ليس كمثله شيء . . لا شريك له . . ولا أحد يعلو ليكون ندا لله جل جلاله . . وكل الناس بدرجاتهم وجاههم فى الدنيا هم عبيد لله سبحانه وتعالى . . فالكل عبد الله . . والكل آتيه بعد هذه الحياة .

وطلاقة القدرة تعطينا الشجاعة فى هذا الكون لكى نواجه كل ظالم . . ونقف مع كل مظلوم . . ونأخذ جانب الحق . . فإذا حاول أحد أن يخيفنا بالأسباب أو ظاهر الحياة الدنيا من جاه أو سلطان أو ملك أنعم الله به على عبد من عباده . . فلنتذكر أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى يستطيع أن يأخذ . . وكما أعز يستطيع أن يذل . . وأن نقف مع الحق . . ولا تغرنا الأسباب لأنها زائلة .

وطلاقة القدرة من روح الإيمان . . لأنها تجعلنا نؤمن يقينا بما يستطيع الله أن يكافىء به المؤمن فى الآخرة من نعم دائمة . . مما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . وتذكرنا دائما بأن الله وحده هو القادر . . والله وحده هو الفعال .

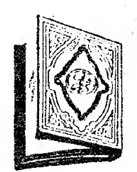


حديث قدسى

●● أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : يا موسى إن من عبادى من لو سألنى الجنة بحذافيرها لأعطيته ، ولو سألنى علاق سوط من الدنيا لم أعطه ، ليس ذلك من هوان له على ولكن أريد أن أدخر له فى الآخرة من كرامتى ، وأحميه من الدنيا كما يحمى الراعى غنمه من مراعى السوء . يا موسى ما ألجأت الفقراء إلى الأغنياء بأن خزائنى ضاقت ، وبأن رحمتى لم تسعهم ، ولكنى فرضت للفقراء فى أموال الأغنياء ما يسعهم ، أردت بأن أبلو الأغنياء كيف مسارعتهم فيما فرضت للفقراء فى أموالهم . يا موسى إن فعلوا ذلك أتممت عليهم نعمتى ، وأضعفت لهم فى الدنيا ، للواحدة عشر أمثالها . يا موسى كن للفقير كنزا ، وللضعيف حصنا ، وللمستجير غيثا ، أكن لك فى الشدة صاحبا ، وفى الوحدة أنيسا ، وأكلؤك فى ليلك ونهارك .

● ● ●

●● يعذب اللسان بعذاب لا يعذب به شىء من الجوارح فيقول : يارب . عذبتنى بعذاب لم تعذب به شيئا من الجوارح ، فيقول : خرجت كلمة بلغت مشارق الأرض ومغاربها ، فسفك بها الدم الحرام ، وأخذ بها المال الحرام ، وانتهك بها الفرج الحرام ، فوعزتى لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئا من الجوارح .



الفصل الرابع

خواطر عن سورة مريم

لا يكمل الحديث عن طلاقة القدرة إلا إذا سجلنا بعض الخواطر عن سورتى آل عمران ومريم . . ذلك أن طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . تتمثل فى أجل معانيها فى قصة مريم . . وعيس ابن مريم عليهما السلام . . ولقد كان اختيار مريم فيه طلاقة قدرة . . واصطفاؤها الأول فيه طلاقة قدرة . . وتطهيرها فيه طلاقة قدرة . . واصطفاؤها الثانى فيه طلاقة قدرة . . ومولد عيسى ابن مريم من طلاقة القدرة . . ثم بعد ذلك رسالته مؤيدة كلها بطلاقة القدرة . . ورفعه إلى السماء فيه طلاقة قدرة .

كل هذه الأشياء جاءت لتهزم العالم المادى الذى كان يعيش فيه بنو اسرائيل خلال هذه الفترة . . فبنو اسرائيل فى طول حياتهم والمادة تحكمهم وتسيطر عليهم . . والذهب هو معبودهم . . حتى حينما أراهم الله طلاقة القدرة بأن جاوز بهم البحر وأنجاهم من آل فرعون . . اتخذوا عجلا من الذهب له خوار البهائم . . وعندما أنعم عليهم الله سبحانه وتعالى بالمن والسلوى وهى أشياء غيبية لا يستطيعون التحكم فيها . . ولكنها رزق يأتيهم به الله ـ طلبوا أن يأكلوا مما تنبت الأرض فى عدم ثقة بالغيبيات . . وثقة كاملة بالماديات . . وعندما أرسل الله لهم طالوت ملكا ونبيا . . قالوا إنه لا يملك مالا . . يؤهله للملك . . وهكذا كل حياتهم هى انكار لنعم الله . . وايمان بالماديات . . وبعد عن الغيب . . حتى أنهم قتلوا أنبياء الله الذين جاءوهم يدعون إلى منهج غيبى ويطلبون نبذ الإيمان المطلق بماديات الحياة . . وهنا يجب أن نفرق بين رسول ونبى . . فالرسول مرسل بمنهج سماوى من الله سبحانه وتعالى وهو مؤيد من عنده . . والله يحفظه فلا يستطيعون الوصول إليه . . ولكن النبى لا يأتى بمنهج ـ ولكن يأتى بقدوة سلوكية ـ أى أنه يأتى مطبقا لرسالة غيره من الرسل . . التطبيق السليم والصحيح . . هذا النبى الذى هو قدوة سلوكية تعرض للقتل من بنى اسرائيل الذين لم يحتملوا منهج الله فى البعد عن الماديات .

وقبل أن أبدأ الحديث عن الخواطر الايمانية حول سورة مريم . . أحب أن أوضح حقيقة هامة . . هى أن الله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا . . يكون

هذا الرسول من البشر . . لماذا ؟ . . لأن رسالة الله فى افعل ولا تفعل . . هى المنهج الذى اختاره الله سبحانه وتعالى للحياة الآمنة الطيبة على الأرض . . ولكن الله لا يترك منهجه بدون تطبيق . . بل هو يرسل المنهج . . ويرسل من يطبقه ليكون قدوة حسنة للمؤمنين بالمنهج . . وليرى الناس كلهم المنهج يطبقه على الطبيعة بشر مثلهم . . فلا يقولوا ياربى إن هذا المنهج لا نستطيعه . . أو إنه ياربى فوق طاقة وقدرات البشر . . فيرسل الله سبحانه وتعالى بشرا رسولا . . يطبق المنهج بحذافيره . . ويريه للناس فى الحياة العملية وفى التجارب اليومية . . حتى يكون هؤلاء الناس شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . ولا يقول واحد منهم إن الله قد حملنا فوق قدراتنا أو فوق ما نطيق .

إذن فبشرية الرسول . . أمر حتمى للرسالات كلها . . ولو كان الرسول فوق مستوى البشر لوجدنا عذرا لأولئك الذين لا يتبعون المنهج ويخالفونه . . ولقال هؤلاء كيف تريدوننا أن نتبع منهجا وضع لمن هم فوق مستوى البشر . . هؤلاء الذين طبقوا المنهج ليسوا بشرا مثلنا . . أما نحن كبشر عاديين فقدراتنا تختلف . . وهى فى جميع الأحوال أقل منهم قدرة . . فإذا أردت ياربى أن ترسل لنا منهجا نتبعه . . فأرسل لنا بشرا رسولا يطبقه . . ولا ترسل لنا رسولا فوق قدرة البشر لأنك فى هذه الحالة تطالبنا بما فوق طاقة البشر . . ومن هنا كانت حتمية الرسالات تقتضى أن يكون الرسول بشرا ليكون قدوة مساوية لقدرة المؤمنين . . فيتخذوه قدوة حسنة دون ما حجة بأنه يملك ما فوق الطاقات البشرية .

نعود بعد هذه المقدمة إلى الخواطر عن قصة مريم عليها السلام . . وتبدأ القصة كما يرويها القرآن الكريم بامرأة عمران . .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة آل عمران الآية ٣٥

.. أى أن امرأة عمران حينما حملت .. وقبل أن تلد .. أو كانت تعرف أنها ستلد ذكرا أو أنثى .. نذرت ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى ولعبادته .. وكان هذا النذر لمحة إيمانية من امرأة مؤمنة أرادت أن تهب لله ذريتها تقربا منه .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٦

فوجئت امرأة عمران عندما وضعت أنها لم تضع ولدا ولكنها وضعت أنثى .. وفى هذه الحالة انتابتها الحيرة .. فقد كانت تريد ولدا يدعو إلى منهج الله وينشأ فى عبادته .. ولكنها وضعت بدلا من ذلك أنثى .. فاتجهت إلى الله سبحانه وتعالى لتقول :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٦

أى أن الذكر أو الولد له قدرات على المشاق فى الحياة .. وعلى الدعوة لدين الله لا تملكها الأنثى .. ورد الله سبحانه وتعالى ليذكرها بطلاقة القدرة .. فقال يا امرأة عمران إننى أعلم بما وضعت ، وأنا الذى أخلق ما فى الأرحام ولست أخلقه فقط بل أعلم كل شىء عنه من يوم مولده إلى يوم وفاته .. كم عمره .. وكم رزقه .. هل هو شقى أم سعيد .. مرزوق أو مقتر عليه فى الرزق .. ماذا سيحدث له من أحداث ويصيبه من أمراض .. فى كل رحلة حياته .. وأعلم كل صغيرة وكبيرة عما يواجهه فى الحياة .. وليس هذا فقط بل اننى أخلق صورته وأعلم هذه الصورة قبل أن يعرفها أحد من العالمين .. ومن هنا فإن علمى بما

جاء فى الأرحام يتجاوز علم الدنيا كلها . . والله سبحانه وتعالى لو شاء أن تضع امرأة عمران ولدا لأعطاها ولدا ولكن الطلاقة الكبرى بدأت منذ اللحظة الأولى لخلق مريم فى رحم أمها فجعلها الله أنثى وحينئذ اتجهت أمها إلى السماء وقالت يارب « وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . . أى يارب لا تجعل للشيطان كيدا ولا سيطرة على مريم وعلى ذريتها .

● **لقاء مع القدرة**

وهنا يأتى سؤال هام : من أين عرفت امرأة عمران أن مريم ستكون لها ذرية ؟ هل أنبأها الله سبحانه وتعالى بما هو قادم . . أم أنه دعاء أم لابنتها حسب ما هو متبع ، ولا أحد يعلم إذا كان الله قد أنبأ أمها بما أعده لمريم . . فلم يخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنبأها . . ولكنه فى الغالب دعاء كل أم . .

هنا بدأت الخطوة الأولى لالتقاء مريم مع طلاقة القدرة . . فتقبلها الله سبحانه وتعالى كنذر نذر لله قبولا حسنا . . وهذا القبول غير الاصطفاء الذى سنتحدث عنه فيما هو قادم . . ولكنه الخطوة الأولى على الطريق إلى المعجزة الكبرى لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . وما يعده لبنى إسرائيل من نبى يفيقهم بطلاقة القدرة عن عبادة الأسباب والماديات وأنبتها نباتا حسنا . وذهبت مريم إلى مكان تنقطع فيه إلى العبادة . . وتنافس الأحبار ورجال الدين أيهم يكفلها . . فقد كانت من طيب المنبت والخشوع إلى الله سبحانه وتعالى بحيث رغب كل منهم فى أن يكون له شرف كفالتها . . وألقوا أقلامهم . . وقسم الله سبحانه وتعالى أن يكفلها زكريا . . ودخلت مريم وانقطعت لعبادة الله .

كان زكريا يدخل على مريم المحراب ليحضر لها طعامها وشرابها ويطمئن عليها بينما انقطعت هى إلى عبادة الله سبحانه وتعالى . . ولكن زكريا فوجىء بشىء غريب . . ذلك أنه كلما دخل على مريم وجد عندها رزقا . . وأى رزق ذلك الذى وجد. . . رزق عجيب . . فاكهة الصيف فى الشتاء . . وفاكهة

الشتاء فى الصيف . . ورزق لا ينفد مهما أكلت منه مريم . . ولا يتلف أو يتعفن . .

كان هذا شيئا عجيبا أثار انتباه زكريا . . وكان هذا أول اصطفاء لمريم بأن اختصها ربها بطلاقة القدرة . . فأراها أنه يعطى ما يشاء لمن يشاء دون أسباب . . حتى إذا وقعت المعجزة . . ووضعت مريم عليها السلام عيسى . . بدون الأسباب البشرية . . لم تهتز اهتزازا يذهب نفسها . . ولم تشك فى أن ما حدث ربما كان فيه خدعة . . بل انها رأت بعينها فى الاصطفاء الأول بطلاقة القدرة . . ما يبرر ويسهل عليها فهم الاصطفاء الثانى على نساء العالمين . . بأن تضع بدون رجل . . ودون أن يمسها إنسان . . ولذلك كانت طلاقة القدرة فى رزق مريم عن غير طريق الأسباب بداية تمهيدية من الله سبحانه وتعالى . . واصطفاء أول تمهيدا للاصطفاء الثانى على نساء العالمين . . ولكن زكريا النبى الحريص على مريم دخل الشك إلى قلبه . . ورغم علمه بأن مريم متفرغة تماما للعبادة وانها لا تغادر غرفتها وتقضى الليل والنهار فى الركوع والسجود لله سبحانه وتعالى . . إلا أنه ببشريته أراد أن يتأكد فسألها « **أنى لك هذا** » أى من أين ذلك يا مريم .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا هنا لفتة كريمة فيها صلاح الكون كله . . فلو أن كل رب لأسرة . . أو راع لمجموعة من الناس . . عندما وجد مظهرا من النعم لا يتناسب مع القدرات البشرية . . قال من أين لك هذا ؟ لصلح الكون كله . . ولأصبح كل إنسان رقيبا حقيقيا على أسرته . . ولكن الذى يحدث أن الأب أو المسئول عن الأسرة . . يجد من بناته وأولاده ما لا يتناسب مع قدراته المادية . . كفستان مرتفع الثمن ، أو مال كثير . . أو أى شىء غال لا يستطيعون شراءه . . لو أنه وقف وقال من أين لكم هذا . . لعرف كل واحد منهم أنه إذا انحرف ، فإنه سيحاسب . . ولعلم قبل أن يمد يده إلى الحرام . . أن الحرام سيكشفه . . ويجعله موضع مساءلة . . ولكنه حين يغمض الأب عينيه ويرى مع

بناته وأولاده ما لا يتناسب مع دخولهم فلا يسألهم من أين لكم هذا . . يشيع الفساد فى الكون . . وتلك الآية ترينا مدى حرص زكريا على مريم وسلوكها . . مع أنها عابدة متعبدة . . منقطعة لعبادة الله سبحانه وتعالى . . إلا أن ذلك لم يعفها من المساءلة من زكريا . . ولم يقل زكريا لنفسه أن مريم امرأة عابدة متعبدة لا يمكن أن يأتيها هذا إلا من طريق سليم . . ولكنه وضع المساءلة أولا . . ليكون متأكدا مائة فى المائة من مصدر هذا الرزق . . حينئذ ردت مريم :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٣٧

وكان الرد مفاجأة لزكريا . . فقد التقى وجها لوجه مع طلاقة قدرة الله التى تهب ما تشاء لمن تشاء دون اللجوء إلى الأسباب . . وإنما تقول للشىء كن فيكون . . وهنا ثارت فى نفس زكريا قضية قديمة . . فهو ليس له ذرية وامرأته عاقر . . وهو كنبى يخاف على أتباعه بعد موته أن يتفرقوا أو يضلوا . . ويريد لهم قدوة سلوكية تحفظهم من بعده .

وثارت فى نفس زكريا مسألة طلاقة القدرة . . فمادام الله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب فلماذا لا يدعوه ليرزقه بولد . . ومادامت الأسباب لا تقيد قدرة الله سبحانه وتعالى . . فإنه قادر على أن يهب زكريا ما يريد . .

● **إعجاز الخالق**

وهنالك . . وفى محراب مريم :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٨

.. رفع زكريا يده إلى السماء .. وهو فى محراب مريم .. وقال ياربى لقد تجلت طلاقة قدرتك فى هذا المكان فرزقت مريم فاكهة وطعاما ليسا موجودين فى الدنيا .. فبحق طلاقة القدرة هذه .. هب لى ذرية طيبة واسمع دعائى .. ولم تمض إلا لحظات وزكريا قائم يصلى فى المحراب عند مريم حتى نزلت الملائكة وقالت له :

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

سورة آل عمران الآية ٣٨

.. نزلت الملائكة على زكريا تبشره بالغلام .. ليس بهذا فقط .. بل تقول له ما هو مستقبله .. وإلى ماذا سيصير .. فلم تكتف الملائكة بإبلاغ زكريا بأن الله سيهب له غلاما .. بل إنه سيكون سيدا ونبيا من الصالحين .. وهكذا كان الابلاغ فيه اعجاز .. اعجاز بعلم الخالق قبل أن يخلق .. وقبل أن تحمل زوجة زكريا .. فقال له إن زوجتك ستحمل .. وستأتى بولد .. ولن أخبرك بهذا فقط .. بل ان هذا الغلام سيشب ويكبر .. ويكون سيدا فى قومه .. ونبيا من الصالحين .. وهكذا نرى مدى التفسير الصحيح لقول الله سبحانه وتعالى « **ويعلم ما فى الأرحام** » .. وهو لم ينبىء زكريا بأن امرأته ستلد ولدا .. وهى قد حملت به .. أو قد مضى عليها فى الحمل عدة شهور .. بل قال له وأنبأه بذلك قبل أن تحمل .. وقبل أن يحدث أى اتصال بين زكريا وزوجته .. وأنبأه بالمستقبل الذى ينتظر هذا الطفل بعد سنوات طويلة ..

هنا اهتز زكريا .. اهتز من اللقاء بطلاقة القدرة .. وتذكر الأسباب التى تعطى .. واعتقد انه قد فهم خطأ .. فأراد أن يتأكد .. فرفع يده إلى السماء مرة أخرى .. وقال :

﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٠

.. رفع زكريا يده إلى السماء وقال ياربى لقد التبس على الأمر فأنا أريد أن أتأكد انى لم أسيء الفهم .. أنا ياربى رجل عجوز .. وامرأتى عاقر لا تلد .. الأسباب هنا ممتنعة من الناحيتين .. ناحية زكريا الذى بلغ من الكبر عتيا .. ولم يعد بالأسباب صالحا لإنجاب الولد .. وحتى هب أن زكريا صالح لذلك فامرأته عاقر .. لم تلد طوال حياتها .. ولم تلد فى شبابها .. فهل ياربى إذا كنت لم أستطع أن أنجب الولد فى شبابى .. وإذا كانت زوجتى عاقرا لم تحمل طوال حياتها .. أتأتى الآن وهى عجوز لتحمل .. وآتى الآن أنا وأنا شيخ كبير لأفعل ما عجزت عن أن أفعله فى شبابى .. هنا اهتز زكريا بالأسباب .. وكان لقاؤه مع طلاقة القدرة .. وكان أول لقاء له .. لقاء قويا هزه من أعماقه فاعتقد انه قد فهم خطأ قول الملائكة أو أن هناك لبسا ما .. حينئذ يقول له الله سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾

سورة مريم آية ٩

وفى سورة آل عمران :

﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٧

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى زكريا بحقيقتين هامتين حول طلاقة القدرة فيقول له إن الله يفعل ما يشاء ، أى ليس هناك قيود على ارادة الله سبحانه وتعالى .. وإذا كانت هناك الأسباب فى الدنيا فالله هو الذى خلق الأسباب .. ولا يمكن أن يكون المخلوق قيدا على الخالق .. إن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب لا تقيده هذه الأسباب وتحد من قدرته .. بل انه يفعل ما يشاء دون أن تكون هناك فى الكون كله قدرة مانعة لهذا الفعل .. أو موقفة له .. ولو كانت هى الأسباب التى خلقها الله سبحانه وتعالى لنظام الحياة فى الكون .. ثم يلفت الله

سبحانه وتعالى زكريا إلى الحقيقة الثانية . . فيقول له إنك تتعجب مما أبلغتك الملائكة وأخبرتك به . . ولكنك يجب ألا تتعجب لأن الذى تحسبه صعبا ومستحيلا هو على هين . . انه أمر بسيط جدا بالنسبة لى . . أنا الذى خلقت هذا الكون كله بما فيه ومن فيه . . هل يستعصى على أن أخلق لك غلاما . . ذلك أمر هين وبسيط أمام قدرة الله سبحانه وتعالى . . وإذا كنت تتعجب من ذلك فانظر إلى نفسك حتى يزول العجب فقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . . أوجدتك من العدم . . فلماذا تتعجب أن أخلق لك ابنا . . إذا كنت أنا قد أتيت بك من العدم . . وخلقتك ووهبت لك الحياة . . فمن السهل على أن أهب لك الولد .

● **العطاء . . بلا أسباب**

وكانت هذه إفاقة لزكريا وهو واقف فى محراب مريم . . وأول ما رآه من طلاقة قدرة الله التى جعلته بعد ذلك لا يشك فى مريم أبدا إذا وجد عندها أشياء عجيبة . . بل يعلم ان طلاقة القدرة تستطيع أن تعطى بلا أسباب . . بدليل إنها أعطت زكريا الولد بلا أسباب . . وكان هذا من الله سبحانه وتعالى تطهيرا لمريم عليها السلام من أى شك يمكن أن يقع فى أى نفس بشرية . . ذلك ان المعجزة التى تمت مع زكريا وفى المحراب عند مريم . . جعلته يعرف يقينا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب . . ولا يتساءل هو أو غيره عما يكون عند مريم من رزق يهبه الله لها .

ويمضى القرآن الكريم ليروى قصة مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

سورة آل عمران الآيتان ٤٢ ـ ٤٣

هنا نزلت الملائكة إلى مريم لتنبئها أن الله قد اصطفاها وطهرها ثم اصطفاها على نساء العالمين . . الاصطفاء الأول هو بالعيش مع طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . والله تقبل مريم عند ولادتها كنذر لله . . ثم اصطفاها بأن جعلها دون خلقه تعيش دائما مع طلاقة القدرة استعدادا لما سيحدث من ولادة المسيح عليه السلام ثم طهرها بعد ذلك بأن منع عنها الشياطين وجعلها تتطهر بالعبادة الدائمة له والركوع والسجود لله سبحانه وتعالى . . ثم حدث الاصطفاء الثانى وهو اختيارها دون نساء العالمين كلهن . . أن تضع مولودا دون أن يمسها رجل . . وكان الاصطفاء الثانى هو اصطفاء لمريم بالذات . . ولذلك نلاحظ فى القرآن الكريم أنه حين تأتى أنباء المعجزات والقصص الايمانية لا يذكر الله سبحانه وتعالى الاسم كاملا . . لماذا ؟ . . لأن هذه لمحات ايمانية مقصود أن يقتدى بها الناس . . ولو أنهم ذكروا بأسمائهم كاملة . . لكانت هذه المعجزات خاصة بهم لا تتكرر لغيرهم . . إلا مريم . . فكلما ذكرت فى القرآن . . قال الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران . . لأن معجزة الميلاد من أنثى بلا ذكر لن تتكرر بالنسبة لنساء العالمين كلهن إلى يوم القيامة . . فهذا اصطفاء لمريم أو اختيار لها لهذه المعجزة دون نساء العالمين . . ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى لم يستخدم لفظ نساء الأرض . . ولكنه استخدم لفظ نساء العالمين . . أى نساء الإنس والجن وكل مخلوقات الله . . لن توجد أنثى يتكرر لها ما حدث لمريم مما اصطفاها الله سبحانه وتعالى به وهى معجزة الميلاد من أنثى بدون ذكر .

تم الاصطفاء الأول . . ثم بعد ذلك قضت مريم سنوات فى العبادة حتى تطهرت . . والتقت بطلاقة القدرة وألفتها فأصبح الله يرزقها بغير حساب ويطهرها ويحفظها من شياطين الإنس والجن . . ثم جاء الاختيار الثانى ونزلت الملائكة على مريم لتقول لها :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٥

كانت هذه أول بشارة لمريم ومحاولة لاعدادها لما سيتم من ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام .

وأخذت مريم بهذه البشارة .. فرغم التقائها مع طلاقة القدرة .. وتعودها عليها فى الرزق من الله بغير حساب .. ورغم أنها قضت فترة طويلة تتعبد وتتطهر .. وحفظها الله من كل الشياطين .. فإن نفسها اهتزت من وقع الخبر .. واتجهت إلى السماء وقالت :

﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ ﴾

سورة آل عمران الآية ٤٧

اتجهت هى الأخرى كما اتجه زكريا إلى الأسباب .. ومع عيشها فى ظل طلاقة القدرة فى المحراب فإنها لم تستطع أن تستوعب تماما طلاقة القدرة فى الخلق .. فقالت ياربى كيف ألد ولم يمسسنى بشر .. لم يقربنى رجل .. فكيف أضع غلاما .. وهنا جاء رد الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

سورة آل عمران من الآية ٤٧

لم يقل الله سبحانه وتعالى لها كيف سيتم ذلك .. ذلك أن الخلق مما احتفظ الله به لنفسه .. ولم يطلع عليه أحدا من خلقه .. حتى أن ابراهيم عليه السلام حينما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ ﴾

سورة البقرة آية ٢٦٠

.. لم يقل له الله سبحانه وتعالى كيف يحيى الموتى .. ولم يطلعه على سر الحياة والموت .. وانما أدخله فى تجربة رأى فيها إحياء الموتى بقدرة الله .. فجاء بالطير

وقطعه ثم وضع كل جزء على جبل ثم دعاهم فجاءوا إليه أحياء . . كانت هذه تجربة عملية على إحياء الموتى . . ولكنها لم تكن إخبارا من الله سبحانه وتعالى لابراهيم عن سر الحياة والموت .

كذلك مريم . . حين سألت الله سبحانه وتعالى . . كيف سيكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ، لم يعطها سر الخلق . . ولكنه قال لها :

﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾

سورة آل عمران آية ٤٧

أى لم تتعجبين أن الله قادر على أن يخلق ما يشاء . . وقد أراك طلاقة القدرة فى الرزق . . وسيريك طلاقة القدرة فى الاصطفاء . . لم تتعجبين يا مريم . . ألم يخلق الله سبحانه وتعالى آدم بدون ذكر أو أنثى . . ألم يخلق حواء من ذكر بدون أنثى . . فالله سبحانه وتعالى ليس لقدرته حدود . . انه قادر أن يخلق بدون ذكر أو أنثى كخلق آدم . . وقادر أن يخلق بدون أنثى كخلق حواء . . وقادر أن يخلق من أنثى بدون ذكر كعيسى ابن مريم . . وقادر أن يخلق من ذكر أو أنثى وهو خلق الأسباب . . إذن فلا عجب هنا لأن الله سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء وإذا أراد أمرا فإنه لا يلجأ إلى الأسباب . . وانما بطلاقة قدرته يقول له كن فيكون . . إذن فلا تتعجبى مما بشرتك به الملائكة . . لأن الله قادر على أن يخلق عيسى دون أن يمسك بشر .

● لماذا جاء الملك

وجاء الملك المكلف بالمهمة إلى مريم . . فظهر لها على هيئة بشر . . قد يقول بعض الناس مادامت الملائكة قد بشرت مريم بالغلام . . ومادام الله سبحانه وتعالى قد لفتها إلى طلاقة القدرة فى انه يقول للشىء كن فيكون . . فلماذا جاء الملك إلى مريم وتمثل لها فى صورة إنسان . . نقول إن فى ذلك حكمة كبرى . .

ان الملك لم يأت إلى مريم ولم يتمثل لها فى صورة إنسان . . ويقول لها أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . ثم يختفى فجأة دون أن يمسها لو لم يحدث ذلك لربما دخل الشك إلى قلب مريم . . واعتقدت أن بشرا قد مسها بأن خدرها أو وهى نائمة . . وعلى العموم لم يكن الأمر يدخل يقينا إلى نفسها . . ولكن كون الملك جاء . . وكونه تمثل لها بشرا سويا . . وكونه قال لها إنى رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . . وكونه اختفى دون أن يمسها . . أدخل اليقين فى قلب مريم فى أن ما حدث لها . . هو من طلاقة قدرة الله وليس لبشر دخل فيه . . ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت فؤادها مرة أخرى بعد أن اهتزت نفسها . . من تبشير الملائكة لها . . وتعجبت أن تلد بدون أن يمسها ذكر . . وهنا . . ومع هذا التثبيت من الله سبحانه وتعالى مريم . . لأنها تجربة سيكذبها فيها اليهود . . ولو لم تكن على يقين مما حدث . . وانه من طلاقة قدرة الله فإن نفسها قد تهتز وتضعف . . ذلك لأنه أمر غير مألوف فى تاريخ البشر كلهم . . وانه يصطدم بأسباب العقل . . وانه لا يتمشى مع المنطق البشرى . . ومن هنا كان لابد من تثبيت مريم تثبيت اليقين . . حتى لا تهتز نفسها أبدا لما سيقابلها من أهلها وعشيرتها من انكار وعدم تصديق لما حدث . . وكان لابد أن تكون مريم على يقين كامل من أن مشيئة الله سبحانه وتعالى هى التى أعطتها عيسى عليه السلام . . ومن هنا كان التثبيت بالتعرف على طلاقة القدرة . . فى أمور مادية محسة كالرزق . . ثم التطهير بالعبادة حتى تشف النفس البشرية . . وتستطيع أن ترى ما لا يراه غيرها . . ثم بالإخبار من الملائكة . . ثم بعد ذلك باليقين من الروح أو الملك الذى أرسله الله لها على صورة إنسان . . والذى اختفى من أمامها دون أن يمسسها . . ومع ذلك قالت مريم :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢٠

.. وعادت مريم إلى الأسباب مرة أخرى .. فرد الله :

﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢١

هنا حسم الله سبحانه وتعالى المسألة مع مريم تماما فى رده عليها هذه المرة فقال إن ذلك على هين وبسيط أن أهبك غلاما بدون بشر .. وسيكون هذا الغلام آية للناس ، أى معجزة من الله سبحانه وتعالى لخلقه يفيقهم من الماديات التى عبدوها من دون الله .. ورحمة منا .. أى أنه سيكون رحمة لمن يتبعه .. يقودهم إلى الطريق .. ويرشدهم إلى المنهج .. ويكون قدوة لهم .. وينقذهم من ضلال بنى اسرائيل وماديتهم « **وكان أمرا مقضيا** » .. هنا الحسم .. أى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يقول لمريم إن هذا الأمر قد قضى وانتهى .. ولم يعد لك خيار فيه .. وأنه بعد هذا الاعداد كله فلابد أن يدخل اليقين قلبك على أن الله سبحانه وتعالى يقول للشيء كن فيكون فيما يريد أن يفعله .. ولقد قضى الأمر وانتهى .. ولم يعد موضع أخذ ورد .. وحملت مريم بطلاقة القدرة .. وذهبت إلى مكان بعيد عن الناس .. فقد كانت تخشى أن تواجههم .. فهى تعلم يقينا أن هذا آية من آيات الله .. ولكن ماذا ستقول لهم .. وكيف تشرح لهم طلاقة القدرة .. وهم لا يعرفون عنها شيئا .. أن بنى اسرائيل أناس ماديون .. والمادة تبعد الشفافية عن الجسم وتجعله معتما .. لا يرى إلا ما هو مادى صرف .. معزول تماما عن الغيبيات فكيف ستأتى إلى هؤلاء القوم .. لتقول لهم كلاما عن طلاقة قدرة الله .. وكيف سيصدقونه وهم على غير علم .

● وكان هذا يخيف مريم

كان هذا هو الذى يخيف مريم عليها السلام .. وهو الذى جعلها تبتعد عن الناس إلى مكان قصى بعيد تضع فيه طفلها .. لأنها لم تكن تستطيع أن تواجه وحدها قوما لا يعلمون شيئا عن طلاقة القدرة .. بمعجزة من معجزات طلاقة

القدرة . . مريم نفسها كانت على يقين مما حدث . . وبعد الآيات البينات التى أراها لها الله سبحانه وتعالى . . وتبشير الملائكة لها . . ثم الملك الذى ظهر ليجعلها تتأكد يقينا أنه لم يمسسها بشر . . ثم قول الله سبحانه وتعالى « وكان أمرا مقضيا » . . كل ذلك قد جعل مريم لا تهتز ولا تظن بنفسها السوء . . بل هى على يقين من المعجزة . . ولكن ماذا تقول للناس . . وكيف تفسر لهم ما حدث . . وكيف تجعلهم يصدقون ؟

ولكن الله سبحانه وتعالى لم يكن غافلا عن هذا . . كان يعلم هذا كله . . وهو العليم بخلقه . . وكان يعرف أن مريم إذا واجهت بنى اسرائيل وقالت لهم انها طلاقة قدرة الله فلن يصدقوها . . ولن يستمعوا إليها . . وسيفترون عليها مختلف الافتراءات . . حينئذ جاء الحل من السماء . . قال لها الله سبحانه وتعالى أنت لن تتكلمى يا مريم ولا أريد لك أن تتكلمى . . ذلك أنك مهما قلت فإن كلامك قد يؤخذ وينسج عليه افتراءات ضدك . . ولكن الذى سيتكلم هو هذا الطفل الرضيع الذى يبلغ من العمر ساعات فقط . . سأجعله ينطق أمامهم لأريهم طلاقة القدرة . . فإذا ما رأوا آمنوا . . لا يوجد طفل فى العالم يتكلم بعد ولادته بساعات . . ولا يستطيع لفترة قد تزيد إلى عام . . ولكنى سأجعل عيسى ابن مريم يتكلم بعد ولادته بساعات . . لماذا . . لمجرد الاعجاز . . لا . . فالله سبحانه وتعالى أعلى وأكبر من أن يريد شهادة من خلقه على اعجازه . . أو أن يريد شهادة من خلقه على أى شىء . . ولكن حتى إذا كذبوا بطلاقة القدرة التى فعلت كل هذا وجاءت بعيسى ابن مريم . . أريهم طلاقة القدرة على الطفل الصغير علها تفيقهم من غيهم وتجعلهم يحسون أنه من الجرم والاثم الكبير الافتراء على مريم . .

ومن هنا فإن عيسى ابن مريم تكلم ساعة ولادته . . بل انظر إلى دقة تعبير القرآن الكريم :

فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾

سورة مريم آية ٢٤

أى أن عيسى ابن مريم عليه السلام تكلم لحظة ولادته وعمره دقائق فقط . . وقبل أن تمتد يد أمه لتلتقطه من تحتها . . لا تحزنى فقد جعل الله تحتك نورا منه يهدى إلى الحق . . وكان قول عيسى عليه السلام ردا على مريم التى كانت تفكر . . كيف ستلاقى قومها به . . وماذا ستقول لهم . . وكان الموقف بالنسبة لها عصيبا . . حتى أنها قالت « **يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » . . وهى فى لحظة تمنيها الموت لأنها تعرف ما ستقابله من بنى اسرائيل . . وكيف سيقابلونها بالنكران والافتراءات . . والموقف العصيب الذى ستمر به . . وهى فى قمة هذا . . تكلم عيسى ابن مريم وقال لأمه « **ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا** » . . ثم نبهها الطفل الذى ولد منذ دقائق فقط أنها فى حاجة إلى الطعام والشراب . . لتقوى وتشتد وتستطيع أن تواجه ما هو قادم . . فقال لها « **وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا** » . . ثم جاءت الآية الكبرى من الله سبحانه وتعالى . .

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾

سورة مريم آية ٢٦

هكذا قال عيسى ابن مريم لأمه مؤيدا بروح القدس . . ومؤيدا بنور من الله سبحانه وتعالى . . قال لها ان أحدا لا يطلب منك أن تتكلمى فمهما قلت فى هذه الحالة فلن يفيد . . ولن يقنع أحدا . . ذلك أنهم معزولون عن طلاقة القدرة . . وقد جئت لهم لأخرجهم بطلاقة القدرة من المادة التى يعبدونها . . فمهما قلت يا مريم فقولك لن يقنع أحدا . . وفى مثل هذه الحالة قول الأم لا يفيد . . فاصمتى أنت تماما . . وقولى : « إنى نذرت للرحمن صوما » . . أى قررت أن أصوم لله تعالى . . فكان الصوم عن الكلام . . قولى لهم إننى لن أكلم إنسانا اليوم لأننى صائمة عن الكلام . . ولكن الذى سيكلمكم . .

ويناقشكم . . ويرد على حججكم . . هو هذا الطفل الصغير الذى عمره ساعات . . إنه هو الذى سيرد ليكون دليلا ماديا ملموسا أمامكم على طلاقة قدرة الله التي جاءت به . . ومادمتم لا تعبدون إلا المادة ولا تثقون إلا فى الماديات . . فقد اختار الله سبحانه وتعالى لكم معجزة من جنس ما تثقون فيه . . ليرد كيدكم . . ويكون آية من الله لكم لا تستطيعون انكارها . . ولا تقدرون على اخفائها . .

عند هذه النقطة اطمأن قلب مريم . . وعرفت أن الله سبحانه وتعالى الذى اصطفاها على نساء العالمين لن يتركها . . وأنه سيرسل معها من يدل على صدقها وطهرها . . وان هذا الطفل الصغير الضعيف سيكون الدليل على قدرة وعظمة الله سبحانه وتعالى وعلى صدق مريم . .

● المواجهة . . بالمعجزة

وحين اطمأنت مريم عليها السلام إلى أن الله سبحانه وتعالى سيرسل معها الدليل المادى الذى لا يحمل الشك فى صدقها . . اطمأن قلبها . . وحملت ابنها وذهبت إلى قومها . . ويقول القرآن الكريم :

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾

سورة مريم الآيتان ٢٧ - ٢٨

وهكذا نجد أن المواجهة التى توقعتها مريم قد حدثت . . وأن بنى إسرائيل قد واجهوا مريم بالسوء قبل أن يسمعوا منها كلمة واحدة . . وهم كقوم ماديين عبدوا الأسباب . . لم ينتظروا حتى تتكلم مريم لتروى لهم ما حدث وهو المنطق الطبيعى فى هذه الأشياء . . فقد كان من الممكن أن يسألوها عن هذا الطفل . .

ربما ليس طفلها . . ربما وجدته فى مكان يواجه خطرا فجاءت به . . وربما ماتت أمه وهئ تلده فحملته مريم إلى قومها . . ولكن كل هذه الافتراضات التى تحتم الأخذ بحسن النية أولا لم ترد على خاطر بنى إسرائيل . . بل افترضوا السوء من أول وهلة وأخذوا يعيرونها وانها ارتكبت اثما كبيرا ويذكرونها بطيب أصلها وصلاح أبويها وأخيها هارون . . وكيف أن هذا الصلاح والتقوى كان يجب أن ينتقل إليها . . وأن تكون هى قدوة سلوكية حسنة . . واتهموا قبل أن يسألوا وقبل أن يعرفوا الحقيقة . . وفى هذا يبين لنا القرآن الكريم سوء أخلاقيات بنى إسرائيل وإسراعهم إلى الظن بالسوء والافتراء فى الاتهام . . وكيف أنهم وقد عصوا الله وقتلوا أنبياءهم . . إنما ذلك عن خلق سيىء لا يعرف للعمل الطيب مكانا .

حينئذ ماذا فعلت مريم . . أشارت إلى عيسى عليه السلام وهى تحمله . . فبهت القوم لأنهم لم يتوقعوا منها ذلك . . كانوا يتوقعون أن تتحدث هى معهم . . أو أن تقول لهم شيئا يبرئها . . أو تحاول تبرير ما حدث . . ذلك كان ظنهم ولكنهم فوجئوا بها وهى تشير إلى الطفل الصغير . . ولم يفهموا لأن طلاقة القدرة غابت عنهم وهم لا يتعاملون إلا بالأسباب . . فأبدوا عجبهم مما فعلته مريم فقالوا : « كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » . . أى يا مريم أنت تستخفين بعقولنا فهذا طفل صغير عمره ساعات . . أو يوم أو بعض يوم . . فكيف تطلبين منا أن نتحدث معه . . وهل ينطق مثل هذا الطفل . . إن الأسباب كلها تقول لا . . إنه عاجز عن النطق . .

ولكن الله سبحانه وتعالى أنطق عيسى ابن مريم . . أنطقه وهو طفل صغير . . أنطقه ليثبت لهم طلاقة القدرة . . وأن الله سبحانه وتعالى الذى لا يجعل طفلا ينطق إلا بعد عام أو أكثر من عام من عمره . . يستطيع أن يجعل طفلا عمره يوم أو بعض يوم أن يتحدث . . ولا يجعله يتحدث حديث الأطفال . . بل يجعله يتحدث حديث الرجال راجحى العقل والمنطق . . وأن

يناقش ويرد بالحجة عليهم .. وأن يكلمهم وكأنه قد بلغ مبلغ الرجولة .. وعقل كل شيء ..

● **المعجزة .. والحكمة**

لماذا وقعت هذه المعجزة .. ولماذا أتمها الله سبحانه وتعالى ؟ ليجعل هؤلاء القوم الماديين يوقنون بما حدث لمريم .. فلو أنها رزقت طفلا عن طريق عادى كما تلد النساء لما استطاع هذا الطفل أن يتكلم أو ينطق حرفا واحدا .. وحتى ولو كانوا قد انتظروا عليه حتى يكبر .. ليتعلم النطق لكان حديثه حديث الأطفال .. فيه سذاجتهم وافتقارهم إلى المنطق والحجة والفهم .. ولكن كون عيسى ابن مريم نطق بعد ولادته بيوم أو بعض يوم فإن ذلك معناه يقينا أن ذلك الطفل لم يأت بالطريق العادى وهو الذكر والأنثى .. ولكن معجزة كلامه تدل على طلاقة القدرة فى مولده .. وأن مريم لم يمسسها بشر .. وإنما عيسى ابن مريم جاء بكلمة « كن » .. والا إذا كانت مريم قد مسها أى بشر لجاءت بطفل عادى مما تلد النساء .. كان يجب على بنى إسرائيل أن يفيقوا ساعة نطق عيسى ابن مريم .. وأن يعلموا أنهم أمام معجزة خارقة لله سبحانه وتعالى .. وأن يؤمنوا بكل ما تقوله مريم .. ويؤمنوا بعيسى رسولا ونبيا ..

ماذا قال عيسى ابن مريم .. كان أول ما قاله « **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** » .. أى أن أول ما بشر به هو رسالته .. قال إنى عبدالله حتى لا يفتن الناس بمولده .. فيحملوا الأشياء أكثر مما تحتمل .. فحسم الموقف بأنه عبد من عباد الله وبشر ورسول .. ثم بعد ذلك قال « **آتانى الكتاب وجعلنى نبيا** » .. أى جعل لى كتابا سأبلغه إليكم .. ورسالة من السماء لكم .. وهكذا كانت أولى معجزات عيسى عليه السلام فى أولى كلمات نطقها .. فقد أبلغهم بالمستقبل وهو مازال فى المهد صبيا .. فقال لهم إنى قد جئتكم بكتاب من الله سبحانه وتعالى .. لأهديكم إلى صراطه المستقيم .. والله جعلنى لكم نبيا .. وفوق ذلك آتانى الحكمة .. وأنتم ترون هذه الحكمة .. وأنا أتحدث إليكم ..

فليس حديثى هذا حديث طفل رضيع . . ولكنه حديث رجل أوتى الحكمة يستطيع أن يجادلكم فيما تقولون . . وكانت هذه معجزة ثانية بطلاقة القدرة . . إنباء بغيب قادم ونبوة ورسالة . . ومازال عيسى ابن مريم فى المهد صبيا . . وانباء بأنه وهو طفل رضيع لم يعط نعمة الكلام فقط من الله سبحانه وتعالى . . بل أعطى نعمة الحكمة أيضا . .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) ﴾

سورة مريم آية ٣١

ومضى عيسى ابن مريم فى كلامه ليقول إن الله سبحانه وتعالى قد أحاطنى ببركته أينما أكون . . فما من مكان أذهب إليه . . إلا حلت فيه البركة . . وملأه الرزق . . كما أوصانى الله سبحانه وتعالى أن أعبده حق عبادته مادمت حيا . . والعبادة واجبة على الإنسان فى فترة الحياة التى تتصل فيها الروح بالمادة . . تلك الفترة هى التى يكون فيها الإنسان مختارا أن يفعل أو لا يفعل . . أن يعبد الله أو يعصيه . . فقبل الحياة . . وبعد الموت لا يكون هناك اختيار . . بل هو قهر . . والله سبحانه وتعالى قال فى قرآنه الكريم « لتنذر من كان حيا » . . أى أن القرآن الكريم للأحياء وليس للأموات . . ولا يستطيع واحد عصى الله فى حياته الدنيوية أن يقول بعد أن يموت . . إننى سأعبد الله حق عبادته بعد الموت ليكفر عنى ما فعلته وارتكبته من معاص . . فبعد الموت ينقطع عمل ابن آدم . . ويعرف جزاءه أو مصيره . . بل إن فى ساعة (الغرغرة) . . وهى ساعة خروج الروح من الجسد . . تعرض أعمال ابن آدم عليه . . فإن كانت طيبة انفرج وجهه وظهر السرور عليه . . وعندما تنظر إليه بعد الموت . . تقول ان نهايته أو خاتمته كانت طيبة . . وإن كان عمله سيئا . . انقبضت أساريره وأكفهر وجهه . . وحاول أن ينطق بالشهادتين فخانه لسانه . . وفى هذه اللحظة يعرف أن مصيره هو النار . . والذى يصل إلى حالة الغرغرة يعرف يقينا أنه ميت . . ويبدأ أولى دقائق حياته فى العالم الآخر . . وهكذا جاء قول عيسى ابن مريم

مؤكدا أنه كنبى لم يعف من التكليف . . فقد طلب منه الله سبحانه وتعالى وأوصاه بأن يعبده حق عبادته مادام حيا . .

ويمضى عيسى ابن مريم عليه السلام . . ليكمل ما أوصاه الله به فيقول . . «وبراً بوالدتى» . . ولم يقل وبراً بوالدى . . وهذه تأتى لتؤكد لبنى إسرائيل مرة أخرى معجزة الله فى مريم عليها السلام . . فلو أن عيسى جاء من ذكر وأنثى . . لقال وبراً بوالدىّ . . ولكنه قال وبراً بوالدتى ليكون شاهد صدق على طريقة خلقه . . وأنه لم يأت من ذكر وأنثى . . بل أتى بطلاقة القدرة من مريم عليها السلام دون أن يمسسها رجل . .

● **وكانت معجزة كافية**

وهنا يجب أن تكون لنا وقفة . . لقد أتت مريم قومها وهى تحمل عيسى عليه السلام . . ونطق عيسى وهو فى المهد . . وكانت هذه معجزة كافية لتقنع بنى إسرائيل بأن ما حدث ليس شيئا عاديا . . ولا تنطبق عليه أسباب الدنيا التى يعرفها الناس . . ولكن الله سبحانه وتعالى يعرف عناد بنى إسرائيل . . ومكابرتهم فى الحق . . وإمعانهم فى الباطل . . ولذلك فقد أراد أن يأتى بأكثر من آية . . تأكيدا لصدق مريم عليها السلام فى كل ما تقول . . ولم يجعل الطفل ينطق فقط . . ولكنه جعله يؤكد لهؤلاء القوم بأنه جاء من امرأة دون أن يمسسها رجل . . ويؤكد لهم هذا بكلامه هو . . وهو رسول ونبى . . مؤيدا من الله بمعجزة منذ لحظة ولادته . . ومبلغا عن الله سبحانه وتعالى برسالة ومنهج . . ومن هنا . . فإنه صادق أمين فيما يقوله . . فإذا قال وبراً بوالدتى ولم يقل وبراً بوالدىّ . . فإن ذلك معناه صدق معجزة مريم . . وهكذا يسوق الله سبحانه وتعالى الدليل تلو الدليل لبنى إسرائيل على طلاقة القدرة . . وصدق رسالة عيسى عليه السلام . . ورغم ذلك فقد كابروا ولم يؤمنوا . .

ويمضى عيسى عليه السلام ليقول «ولم يجعلنى جبارا شقيا» أى أننى لم آت إليكم كجبار يفسد فى الأرض ويقهر الناس ويجبرهم على الأشياء . . وينشر

الرعب وسفك الدماء . . بل جئتكم رحمة من الله سبحانه وتعالى . . رحمة منه لأعيدكم إلى المنهج الذى تركتموه واتخذتموه وراءكم ظهريا . . أى وضعتموه وراء ظهوركم حتى لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا إليه أبدا وجئتكم كرحمة لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم . . وفى هذا رحمة من الله وفضل . . إنه يرفع العنت عنكم . . ويزيل عنكم بعض المشاق التى فرضت عليكم بعصيانكم للمنهج ولأوامر الله . . أنا قد جئت لأرفع عنكم كل هذا برحمة من الله سبحانه وتعالى . . فكأننى رحمة فى أن أعيدكم إلى المنهج . . لتعودوا إلى طريق الله السوى . . وأجنبكم عذابه وغضبه . . وجئت إليكم لأيسر لكم حياتكم فأحل لكم بعض ما حرم عليكم . . وجئتكم برحمة أخرى . . هى أننى أخرجكم من الماديات التى غرقتم فيها . . وألفتكم إلى الغيب وإلى الله سبحانه وتعالى . . علكم ترعون الله وتهتدون . . وتعرفون أنه بجانب ماديات الدنيا . . فهناك الغيب والروح . . وهناك غير المادة التى تعبدونها وتتخذونها إلها . . وهناك الله سبحانه وتعالى الذى هو بطلاقة قدرته يستطيع أن يحقق لكم كل ما تريدون . . فلا تتخذوا منهج الله وراء ظهوركم وتنبذوه . . وتعبدوا مادة الدنيا وحدها .

لم يجعلنى الله جبارا . . ولكنه سبحانه وتعالى جعلنى رحمة . . ولم يجعلنى شقيا محكوما عليه بالشقاء والعذاب . . بل جعلنى مرضيا عنه منه . . أى أن الله قد رضى عنى فى الدنيا والآخرة . . ولم يجعلنى من زمرة الأشقياء الذين يشقون بغضب الله فى الحياة الدنيا وعذابه فى الآخرة .

ثم يمضى عيسى ابن مريم عليه السلام « **والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** » . . وهذه الآية تحمل معانى عميقة . . فما من شىء أحدث جدلا فى الدنيا مثل ثلاثة أشياء . . يوم ولادته وطريقة هذا المولد . . ويوم وفاته ورفعه إلى السماء . . ويوم يبعث حيا ، أى بعثه فى آخر الزمان ليهدى الناس . . أو بعثه يوم القيامة . . وهذه النقط الثلاث مازالت موضع جدل كبير حتى يومنا هذا . . وستظل كذلك حتى قيام الساعة . . فمازال مولد عيسى ابن مريم موضع

جدل بين اليهود والنصارى . . ومازال كل فريق منهما يتحدث عن هذا المولد بطريقة تختلف عن طريقة الفريق الآخر . . مازالت النظريات الفلسفية تقوم . . والفلاسفة والذين يكتبون عن الدين يحاولون وضع الروايات المختلفة والنظريات الفلسفية المتناقضة عن مولد المسيح عليه السلام . . ورغم أن القرآن الكريم قد حسم الموقف تماما . . وروى عن الله سبحانه وتعالى قول الحق الذى فيه يختلفون . . إلا إنه مازالت هناك فلسفات تقوم ونظريات بعد نظريات . . ولقد كان يكفى ما أراه الله لعباده من طلاقة القدرة فى مولد المسيح عليه السلام . . وحديثه وهو طفل . . والمعجزات التى أيده بها . . فقد كان جبريل لا يفارق عيسى عليه السلام ليثبته أمام الجدل والاتهام اللذين واجهه بهما بنو إسرائيل . . ولكن رغم كل هذه المعجزات والتحضير الالهى لمولد عيسى . . واللفتة إلى الروحانيات . . أو إلى الغيب وطلاقة القدرة التى جاء بها عيسى عليه السلام . . فإن الجدل مازال يثور . . ولكم أن تطلعوا على الكتب التى تصدر حتى فى هذه الأيام فتجدوا انها تحمل صور هذا الجدل . . ودليلا يهدمه دليل . . ولكن رغم هذا الجدل فإن عيسى عليه السلام . . أعطى السلام والأمن من الله يوم مولده وبرأه الله سبحانه وتعالى من كل جدل يحدث بعد ذلك . .

ويدور الجدل حول وفاة عيسى عليه السلام . . والقرآن الكريم يقول لنا . . إن عيسى لم يصلب وأن الله قد رفعه إليه . . ولاشك أن مسألة الرفع إلى السماء يجب ألا نتوقف عندها . . ذلك لأن عيسى عليه السلام من مولده إلى وفاته مؤيد بقدرة الله سبحانه وتعالى . . وإذا كان ميلاده معجزة . . وحديثه وهو طفل معجزة . . والأشياء التى قام بها وهو نبى والتى سنتناولها معجزات . . وكلها مؤيدة بطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . . لا تخضع لأسباب الكون . . فلماذا نريد أن نخرج عن هذا كله فى رفعه إلى السماء . . ولماذا نصدق طلاقة القدرة فى مولده ومعجزاته . . ثم بعد ذلك نأتى إلى وفاته ورفعه إلى السماء ونجادل فى الأسباب . . مادامت الرسالة كلها مؤيدة بطلاقة القدرة . . فيجب أن نأخذ كل الأحداث فيها بمنطق طلاقة قدرة الله . . وليس بمنطق الأسباب . . فلا نطبق

على جزء من حياة عيسى عليه السلام طلاقة القدرة .. وعلى جزء آخر منها الأسباب ، وألا نكون قد ناقضنا أنفسنا .. وهدمنا المنطق .. بل إننا يجب أن نأخذ رسالة عيسى منذ مولده حتى رفعه إلى السماء بطلاقة القدرة وحدها التى تقول للشيء كن فيكون ولا نأخذها بالأسباب والمسببات التى نعرفها .

● لماذا الجدل ؟

ثم لماذا الجدل عن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بالجسد أو الروح فلقد حدثت هذه المعجزة لرسولنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأسرى به الله بالجسد إلى سدرة المنتهى .. ثم أعاده إلى الأرض مرة أخرى .. وهذا ثابت ويقيني مما أخبرنا به القرآن الكريم صدقا من الله سبحانه وتعالى .. فهل تقف طلاقة قدرة الله عن أن يرفع عيسى إلى السماء بالجسد .. إن الذى يؤمن بطلاقة القدرة يعلم يقينا أنه لا شيء يستطيع أن يحدها .. ولا قيود ولا حدود على قدرة الله سبحانه وتعالى ولا أسباب ولا مسببات .. ومادام الفعل قد نسب إلى الله سبحانه وتعالى فهو الذى عرج إلى السماء بمحمد عليه السلام وهو الذى رفع عيسى إلى السماء .. فإن العمل يجب أن ينسب إلى قدرة الفاعل الذى ليس كمثله شيء .. فإذا كان الفاعل هو الله سبحانه وتعالى يكون الفعل بلا قيود ولا زمان ولا مكان .. ويكون مصدقا لأن الفاعل هو الله الذى خلق كل شيء والذى يقول كن فيكون .

إذن فلا محل للجدل هنا .. لأن الجدل يمكن أن يثار إذا كان الفاعل إنسانا .. أو محدود القدرة .. ولكن إذا كان الفاعل هو الله فلا جدال .. أما بقاء عيسى عليه السلام ليبعث فى آخر الزمن أو يوم القيامة فلا يثير جدلا هو الآخر .. ذلك أنه فى الحالة الأولى .. فإن الفرق بين معجزة محمد عليه السلام ومعجزة عيسى هو فرق الزمن الأرضي أو الوقت .. فمحمد عليه السلام عرج إلى السماء ثم أعيد إلى الأرض فى فترة زمنية قصيرة .. وعيسى عليه السلام سيأخذ فترة زمنية أطول ولا زمن عند الله سبحانه وتعالى ..

على أننا فى كل هذا .. وأعود فأكرر مرة أخرى يجب أن ننسب الفعل إلى الفاعل .. وإذا كنا فى الأشياء الأرضية ننسب الفعل إلى الفاعل .. فحفل يقيمه وزير أو حاكم لا نتقبله بعقولنا كما نتقبل بنفس المقاييس حفلا يقيمه رجل فقير بسيط .. فإذا قيل لى إن حاكما أو وزيرا قد أقام حفلا .. وإن رجلا بسيطا قد أقام حفلا .. فإننى بعقلى ودون أن يخبرنى أحد أعرف أنه يجب أن أنسب الفعل إلى الفاعل .. فأعرف أن الحفل الذى يقيمه الوزير أو الحاكم يقام فى مكان فاخر .. يحضره عدد كبير من الناس وعلية القوم .. بينما حفل الرجل الفقير يقام فى مكان بسيط ويحضره عدد قليل من عباد الله البسطاء ، إذن ففى الحالتين قد نسبت الفعل إلى الفاعل .. وفرقت فرقا هائلا بين امكانيات الفاعل فى حدث واحد وهو الحفل .. وإذا كانت هذه هى المقاييس فإننا يجب أن نفرق بين قدرة الفاعل وهو الله .. وبين قدرة البشر .. وأن ننسب الحدث لقدرة فاعله الذى ليس كمثله شيء ..

على أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا فى كتابه العزيز أن هذه المسائل الثلاث ـ مولد عيسى ورفعه إلى السماء وبعثه ـ ستكون مثار جدل حتى قيام الساعة .. وأن الله سبحانه وتعالى قد برأ عيسى عليه السلام من هذا الجدل .. ومن كل ما قيل ويقال بعد رفعه إلى السماء ..

على أننا حين نتحدث عن معجزات عيسى عليه السلام .. فيجب أن نلاحظ شيئا هاما .. هو أن الله سبحانه وتعالى فرق بين هذه المعجزات رغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من الله .. فقال الله سبحانه وتعالى على لسان عيسى ..

﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

سورة آل عمران آية ٤٩

نلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات . . فجعل بعضها تتبعه عبارة (بإذن الله) . . والبعض الآخر لم يذكر فيه شيئا عن هذه العبارة . . ورغم أن عيسى عليه السلام رسول مؤيد من ربه بالمعجزات ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قد فرق بين المعجزات التى هى بإذنه والمعجزات التى أيد بها رسوله . . فمعجزة الخلق وان عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير وينفخ فيه فيكون طيرا . . ذكر الله سبحانه وتعالى أن الحياة تدب فى هذا الطين بإذن الله . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد احتفظ بسر خلق الحياة لنفسه . . ولم يعطه لعبد من عباده . . ومن هنا كان لزاما أن تأتى كلمة بإذن الله بمعنى أن الخلق يتم لا بمعجزة ذاتية ولكن بإذن الله سبحانه وتعالى . . ثم تمضى السورة الكريمة : **« وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله »** . . ذلك أن الشافى هو الله سبحانه وتعالى . . ولا شافى غيره . . مصداقا لقوله تعالى **« وإذا مرضت فهو يشفين »** . . كما أن إحياء الموتى هو بإذن الله سبحانه وتعالى الذى يحيى ويميت . . وهكذا كانت هذه المعجزة إعلانا من الله سبحانه وتعالى بأنه هو الفاعل وحده . . لا يشرك أحدا معه فى ذلك . . إنه إذا كانت هذه المعجزات قد تمت على يد رسول فإنها تتم بإذن الله فإنه هو الذى يحيى ويميت وهو الذى يشفى من المرض . .

ثم تأتى بعد ذلك المعجزات الأخرى **« وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم »** تلك آية من الله سبحانه وتعالى إلى عيسى عليه السلام . . مكنه الله منها فاستطاع أن يقوم بها بذاتيته . . وهى وإن كانت تأييدا من الله . . إلا إنها تأييد لرسوله . . كدليل على صدق الرسالة . . وأن الله سبحانه وتعالى لم يحتفظ

بسر هذه الأشياء لنفسه . . بل أطلع عليها عيسى عليه السلام ومكنه منها . . ومن هنا فإن هناك معجزات احتفظ الله بسرها لنفسه ومكن عيسى من القيام بها . . ومعجزات أطلع الله عيسى عليه السلام على سرها ومكنه منها وسر الخلق والموت وإحياء الموتى احتفظ به الله لنفسه ولم يطلع رسولا من رسله على الكيفية التي يتم بها ذلك .

على انه رغم طلاقة القدرة التي لازمت عيسى منذ ساعة مولده حتى رفعه إلى السماء . . تلك الطلاقة التي أعطته من ساعة ولادته حتى ساعة رفعه إلى السماء معجزات بينات . . فإن ذلك لم يقنع بني إسرائيل . . ولم يجعلهم يؤمنون به . . بل على العكس جعلهم يتمسكون بالماديات وهم يرون الغيبيات وطلاقة القدرة . . وبدأوا يتآمرون عليه ويكذبون رسالته . . وكلما جاءهم بمعجزة أنكروها ولم يلتفتوا إليها . . ذلك هو طبع بني إسرائيل . . فقد جاءهم موسى بمعجزات لا تعد ولا تحصى . . وكلما حدثت أمامهم معجزة . . بقوا فترة وجيزة على الإيمان . . ثم عادوا إلى الكفر مرة أخرى . . ولم تجعلهم كل المعجزات يبتعدون عن الماديات ويتجهون إلى الله سبحانه وتعالى . . بل كان ولاؤهم دائما للذهب والمال حتى يومنا هذا . . ولقد لعنهم الله بكفرهم . .

● . . ولم يؤمنوا ! . .

وعيسى عليه السلام بعد كل ما أراه لهم رؤيا العين . . ويقين المشاهدة . . أحس انهم لم يؤمنوا . . وأحس أنهم يبتعدون عن الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

سورة آل عمران آية ٥٢

أى أن عيسى عليه السلام حين أحس من هؤلاء اليهود بكفرهم وعنادهم .. وعدم طاعتهم أو اقتناعهم رغم كل ما أرسله الله على يديه من آيات بينات .. أحس عيسى منهم الكفر .. فبدأ يبحث عن رجال أمناء مؤمنين .. يبلغون رسالته من بعده ويحملون منهج الله إلى عباد الله فى الأرض .. كان ذلك يقينا من عيسى عليه السلام أن بنى إسرائيل لن يؤمنوا له رغم كل البينات التى جاء بها .. ورغم أنه قد جاء إليهم رحمة من الله سبحانه وتعالى ليحل لهم بعض ما حرم عليهم .. ليدلهم على منهج الله الذى ينجيهم من عذاب اليم .. ورغم كل هذا الذى يعتبر فى مصلحة بنى إسرائيل .. فقد أحس عيسى منهم الكفر وعدم الإيمان .. فبدأ يلتجىء إلى الحواريين ومريديه ليلقنهم الرسالة الصحيحة .. ويخبرهم بما أنزله الله عليه .. حتى يكونوا من بعده دعاة مخلصين لهذا الدين الذى كان واثقا ان بنى إسرائيل سيحاولون تشويهه ومحاربته ونشر الأكاذيب عن رسالته ولقد قام الحواريون بتلقى منهج الله ثم نقلوه بعد ذلك إلى أقطار الأرض ..

وهكذا كان عيسى عليه السلام حريصا فى حياته على أن يبلغ الرسالة التى كلفه الله بها .. فلما لم يفلح مع بنى إسرائيل اتجه إلى تلاميذه وحوارييه .. وأعطاهم التعاليم التى نزلت عليه من السماء .. وأخذ عهدا منهم أن يقوموا بابلاغها إلى الناس حتى يفوت على بنى إسرائيل فرصة القضاء على هذا الدين وهو ما كانوا يبيتونه وأحسه عيسى عليه السلام فى حياته .

إلى هنا .. وأتوقف عن خواطرى حول سورة مريم .. وعيسى ابن مريم عليهما السلام .. ولقد كانت رسالة عيسى عليه السلام تجسيدا لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .. فطلاقة القدرة جاءت من أول الرسالة إلى آخرها .. فعندما نذرت امرأة عمران ما فى بطنها لله سبحانه وتعالى .. جعلها الله تلد أنثى .. ولما أحست امرأة عمران أن الذكر ليس كالأنثى .. ورفعت يديها إلى السماء معلنة ذلك .. قال لها الله سبحانه وتعالى إنه أعلم بما وضعت .. ثم بدأ اصطفاء مريم يكشف طلاقة القدرة لها على أشياء مادية من الرزق الذى يعطيه لها الله

وهى فى المحراب تتعبد . . وشاء الله سبحانه وتعالى أن يرى زكريا طلاقة القدرة عندما سأل مريم من أين لك هذا . . ورزقه بابن وهو رجل عجوز وامرأته عاقر . . ثم طهر الله سبحانه وتعالى مريم بالعبادة له والسجود إليه والتقرب منه ثم اصطفاها مرة أخرى على نساء العالمين لتكون هى الأنثى الوحيدة فى سائر مخلوقات الله من الأنس والجن وكل ما خلقه الله لتضع مولودا بدون ذكر . . ولذلك كان الاصطفاء الثانى مقرونا بذكر اسم مريم مميزا فى القرآن الكريم . . ففى كل آيات القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى مريم ابنة عمران . . وعيسىٰ ابن مريم . . ولا يأتى ذكرها ولا ذكر ابنها بالاسم الأول وهو مريم وعيسى . . مع أن المتبع فى القرآن الكريم هو الاسم الأول فقط . . لأن ما يرويه القرآن هو أمثلة إيمانية لا تتعلق بالشخص نفسه . . إلا فى قصة مريم فقد اختصها الله بهذه المعجزة التى لن تتكرر إلى يوم القيامة . . والتى فضلها بها على كل النساء واللاتى خلقهن فى العالمين .

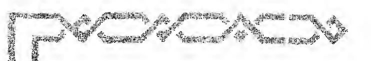
وقد جاء ميلاد المسيح ابن مريم دليلا على طلاقة القدرة التى تقول للشيء كن فيكون . . فولد من أنثى بدون ذكر . . وثبت الله مريم قبل أن يحدث ذلك . . ثم أظهر صدق المعجزة بأن جعل عيسى ابن مريم ينطق وهو طفل عمره دقائق . . ثم أيده بالمعجزات . . عدد منها بإذن الله كأن يصنع الطين على هيئة الطير ويحيى الموتى ويشفى المرضى ، كل ذلك يتم بإذن الله . . وعدد منها يتم بما أطلعه الله ونبأه به من أسرار الكون لتكون آية ودليلا على صدق رسالته كإنباء الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم .

ورغم هذه المعجزات البينات . . وأن عيسى قد أرسل رحمة لبنى إسرائيل . . فقد كفر به بنو إسرائيل وتربصوا به . . فلما أحس عيسى منهم الكفر جمع حوارييه أو تلاميذه . . وأبلغهم ما أرسل به لينقلوا رسالة الله إلى البشر . . وحملهم أمانة هذه الرسالة . .

وعند هذا الحديث . . يجب أن نتناول معجزة الخلق . . وهذا هو موضوع الفصل القادم .

الفصل الخامس

معجزة الخلق



الاعجاز فى القرآن الكريم هو إعجاز دائم . . أى أن القرآن معجزة يوم أن أنزل . . ومعجزة فى هذا العصر . . ومعجزة فى العصور القادمة إلى أن تقوم الساعة . . ذلك ان إعجاز القرآن اعجاز متجدد . . وعطاءه هو عطاء لكل جيل . . عطاء مختلف عن الجيل الذى سبقه . . تلك حقيقة هامة لابد أن نعيها حين نتحدث عن اعجاز القرآن الكريم . .

والقرآن لا يفسر بمعنى أنه لا يمكن لأحد أن يقول إنه يفسر القرآن . . بل هى خواطر إيمانية لكل مجتهد حول القرآن الكريم . . ذلك أن التفسير الكامل للقرآن لا يعلمه إلا الله وحده . . وإنما خواطر القلب المؤمن هى التى يمكن أن نسجلها حول آيات القرآن الكريم . . ولو أن القرآن الكريم كان من الممكن أن يفسر لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره . . لأنه نزل عليه . . ولكن رسول الله بيَّن للناس الأحكام التكليفية التى يثاب المرء إن فعلها . . ويعاقب إن تركها . . وهى حدود الله سبحانه وتعالى فى افعل ولا تفعل . . أما ما يتعلق بالوجود وأسرار القرآن حول هذا الوجود . . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشع ذلك ولم يعممه . . وإن كان قد علمه هو نفسه . . لماذا ؟ لأن العقول قد لا تتقبله . . فالقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود . . وانما وضعت أسرار الوجود فى القرآن الكريم لتعطى عطاء لكل جيل حسب العلم الذى يكشفه الله له . . حينئذ يكون عطاء القرآن مستمرا مع تقدم العلم والحياة إلى أن تقوم الساعة . .

إن فى القرآن إعجازا فى اللفظ . . واختيار الكلمات والمعانى . . بحيث تناسب كل عقل . . وكل جيل . . ولعل أولى معجزات القرآن أنها تخاطب الجميع : المتعلم . . والجاهل . . والذى قرأ علوم الدنيا كلها . . والذى لم يقرأ حرفا واحدا . . وإذا لاحظنا فى الخطاب البشرى . . نجد أنه يقال لكل مقام مقال . . أى أن الذى يتحدث به مع نخبة من العلماء غير الذى يتحدث به مع أناس بسطاء . . لم يقرأوا شيئا . . غير حديثك لأولئك المفكرين . . ولكنك

تذهب إلى المسجد فتجد العالم والأمى ونصف المتعلم يجلسون معا . . ويقرأ القرآن . . فتهتز نفوسهم جميعا . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى يخاطب ملكات خفية فى النفس لا يعلمها إلا هو . . وهذه الملكات هى التى تهتز للقرآن الكريم . . كلام الله . . وكل واحد من الجالسين مهما كانت ثقافته له متاع فيما يقرأ . . واهتزاز وانفعال داخل نفسه . . رغم أنه من الصعب أن تخاطب هؤلاء جميعا . . وتحدثهم بكلام دنيوى لاختلاف مستوى العقول . .

إن القرآن الكريم لم يأت ليعلمنا أسرار الوجود . . ولكنه أشار إليها وسجلها ليظهر الاعجاز الالهى للناس . . فى كل عصر . . ومع تقدم العلم البشرى . . على أن ربط القرآن الكريم بالنظريات العلمية شىء لا يجب أن يحدث . . فالقرآن لا تربط صحته باتفاقه مع نظرية علمية أيا كانت . . ولكن العلم هو الذى يستمد صحته وبيانه إذا اتفق مع آيات القرآن الكريم . . فكل علم يخالف لحقائق القرآن هو علم زائف . . لأن قائل القرآن هو الله سبحانه وتعالى وخالق الكون هو الله سبحانه وتعالى . . ولا يمكن لمخلوق أن يصل فى أسرار الكون إلى علم الخالق . . تلك حقيقة هامة خاصة لأولئك الذين يحاولون أن يربطوا معجزة الخلق بنظريات أرضية . . والحياة والموت هما مما اختص به الله سبحانه وتعالى نفسه . . حتى إنه إذا أعطى هذه المعجزة إلى رسول من رسله . . كما أعطاها إلى عيسى عليه السلام . . فإنه يقول . . باذن الله . . فعيسى يقول . . **« وأحيى الموتى بإذن الله »** . . ويقول . . **« إنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله »** . . ولكنه يقول . . **« وأبرىء الأكمه والأبرص »** . . **« وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم »** . . يلاحظ أن معجزة الحياة والموت لم ترد إلا ومعها كلمة باذن الله . . بينما وردت المعجزات الأخرى كابراء الأكمه والأبرص . . وغير ذلك . . كمعجزات أيد بها عيسى من الله سبحانه وتعالى . . دليلا على صدق رسالته . . وتبليغه عن الله . . ولكن معجزة الخلق هى لله وحده . . ولكن بعض الناس يأتى ليجادل فى ذلك . . مدعيا أن الإنسان أصله قرد . . إلى آخر ما يقال فى عدد من النظريات

العلمية . . ونحن نقول لهؤلاء . . إذا كان الإنسان أصله قرد . . فلماذا توقف هذا التحول منذ ألوف السنين . . لماذا لم نشهد نحن فى كل التاريخ المكتوب للبشرية . . ان قردا قد تحول إلى إنسان . . فمن الذى اختص قردا واحدا . . دون بقية بنى جنسه . . فى أن يتحول إلى إنسان مرة واحدة فى التاريخ لا نعرف لها سجلا . . ولم نسمع عنها شيئا . . اللهم إلا افتراضات لا تستند إلى الحقيقة . . لو أن الإنسان أصله قرد . . لكانت سنة أن يتحول القرود إلى بشر . . ومادام ذلك قد حدث مرة واحدة . . فإنه لابد أن يتكرر . . ولكننا لم نشاهد هذا فى التاريخ الإنسانى . . فما الذى أوقفه . . ولماذا لم تستمر العملية ككل عمليات الحياة . . إن الذى أوقفه أنه لم يحدث أصلا . . ولم يكن موجودا إلا فى خيال أولئك الذين زعموه بلا دليل علمى محسوس . . ولو كان هذا صحيحا لأمكن بعد تقدم العلم البشرى أن يقوم العلماء بتحويل قرد إلى إنسان . . ولكنه مجرد زيف . .

والله سبحانه وتعالى حين أوجد الحياة أبلغنا بطريقة الخلق ومعجزته . . وقال إننى خلقت من كل شيء زوجين اثنين . . أى أن كل مخلوقات هذه الدنيا بدأت بخلق الله سبحانه وتعالى لذكر وأنثى . . ثم بدأ التكاثر بعد ذلك . . وكل من يقول غير هذا . . هو مخالف للحقائق العلمية فى أن الحياة لا يمكن أن تتكاثر إلا بذكر وأنثى . . وهذا هو بداية الخلق . .

● أسرار الخلق

على أن بعض الناس لا يكتفى بما قال الله سبحانه وتعالى عن الخلق . . وإنما يحاول أن يصل إلى أسرار هو ليس مؤهلا لها . . نقول له إن الله سبحانه وتعالى أعطى للعلم البشرى ما يفيده . . وحجب عنه ما هو علم لا ينفعه . . وجهل لا يضره . . فعدم علمك بأسرار خلق الشمس مثلا . . لا يؤثر فى شيء فى استفادتك بالشمس نفسها . . فى الزراعة . . والتدفئة . . واستغلال النهار فى السعى من أجل الرزق . . وغير ذلك مما احتاجه فى حياتى العادية . . تماما كما

يحدث بالنسبة للكهرباء مثلا . . فعدم معرفتي بأسرار الكهرباء لا يمنعني من أن أضغط على الزر . . فأوقد المصباح . . وأؤدي عليه حاجاتي في الليل . . وعدم علمي بأسرار التليفون لا يمنعني من أن أستخدمه لأتحدث به إلى من أريد . . وهكذا أشياء كثيرة في الكون . . أستطيع أن استخدمها دون أن أصل إلى أسرارها . . أي يستخدمها العالم بها والجاهل بها بنفس الطريقة . . ونفس الاستفادة

ومن هذه الأشياء . . الغيبيات التي اختص بها الله سبحانه وتعالى نفسه . . نجد إنسانا يبحث عن أسرار الروح . . نقول له انك لن تخلق روحا . . ولن تصل إلى أسرارها لأنك لا تستطيع أن تأخذها وتضعها في المعمل . . وتجرى التجارب عليها . . فهي شيء غير مادي يتصل بالمادة فيعطيها الحركة . . ويخرج منها فتعود مادة هامدة كما كانت . . وأنت لا تعرف مكان الروح في جسدك . . في أي جزء هي . . هل هي في القلب . . أو في المخ . . أو في اليدين . . أو في القدمين . . فالجسد كله يتحرك بالروح . . ولكن هذه الحركة عامة . . بحيث لا يستطيع إنسان أن يحدد بالدقة مكان الروح من الجسد . . بل ان الروح حين تغادر الجسد فإن وزنه لا ينقص . .

إذن النفس هي اتصال الروح بالمادة لتعطيها الحياة . . فإذا اتصلت الروح بالمادة أعطتها القدرة على الحركة والنمو . . وكل ما تحتاجه الحياة البشرية . . وإذا انفصلت عنها عادت المادة إلى طبيعتها الساكنة الهامدة . . والله سبحانه وتعالى احتفظ لنفسه بسر الحياة . . وسر الموت . . فهو خالق الحياة . . وخالق الموت . . وكل محاولة في هذه المجالات . . إنما هي علم لا ينفع وجهل لا يضر . . ذلك أن عدم معرفتي بأسرار الروح والخلق لا يمنعني من ممارسة حياتي على الأرض . . وليس معنى ذلك أن البحث في هذا الموضوع منهي عنه . . بل ليبحث أهل الأرض كما يشاءون . . ولكن الذي نرفضه أن يأتي إنسان بنظرية مبنية على الظن والاستنتاج . . ويحاول أن يجعل منها قضية لطعن الدين . . بينما

هى فى الحقيقة مجرد ظن لا يغنى عن الحق شيئا . . كأن يقول عالم إن الإنسان أصله قرد دون أن يأتى بدليل مادى على ذلك . . فهذا أمر مرفوض لأنه يخالف قول الله تعالى . . بأن الخلق تم لكل نوع بزوجين ذكر وأنثى . . فالبحث العلمى إذا قام على حقائق فإنه مقبول . . وإذا قام على الظن والافتراض . . فإنه مرفوض . . وحقائق الكون كما ذكرها الله فى القرآن الكريم هى حقائق أزلية . . لا يمكن أن تتصادم مع الخلق لأن القائل هو الخالق . .

ونأتى الآن إلى خلق آدم . . الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه خلق الإنسان من طين . . أى من عناصر الأرض والتربة التى نعيش عليها . . والبحث العلمى المعملى أثبت أن الأرض تتكون من ١٨ عنصرا . . كلها موجودة فى جسد الإنسان . . ثم نفخ الله سبحانه وتعالى فيه من روحه . . والروح من أمر الله . . لم يصل إليها العلم . . ولن يصل . . فتم خلق آدم . . وخلق حواء من آدم . . ثم عرض الله سبحانه وتعالى آدم على الملائكة . . وقال لهم إنه خلق خليقة فى الأرض . . وهنا قالت الملائكة . . اتخلق من يفسد فيها . . ويسفك الدماء . . ونحن نسبح بحمدك . . قول الملائكة هذا قد يوحى بأنه كان هناك خلق آخر قبل خلق الإنسان . . عوالم أخرى كالجن مثلا . . وأن هؤلاء أفسدوا فى الأرض . . وسفكوا فيها الدماء . . وكانت تجربة شهدها الملائكة . . فحكموا بها . . ومن هنا فإن حكمهم كان على شئ قد مضى . .وحدث . . وهم يطبقون التجربة بالقياس . . حينئذ ماذا فعل الله سبحانه وتعالى . . علم آدم الأسماء كلها . . أى أنه علمه أسماء الأشياء التى سيقابلها فى حياته على الأرض . . وسواء كان ذلك هو العلم البشرى كله . . اختزن فى عقل آدم ليخرج بعد ذلك إلى ذريته جزءا جزءا . . أو سواء كان ذلك العلم الأولى الذى استخدمه آدم حين نزل إلى الأرض . . فالثابت أن علم آدم جاء من الله سبحانه وتعالى . . وأن الله هو الذى علم الإنسان . .

● **العقل يرث الحضارات**

وهنا لنا وقفة قصيرة . . أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل العقل البشرى منفردا بأن يرث الحضارات . . أى أن الإنسان هو الكائن الذى يستطيع أن يبدأ من حيث انتهى أبواه وأجداده . . فأنت تستطيع أن تعلم ابنك ما وصلت إليه من قمة العلم . . وهو يزيد عليه . . ويعلم ابنه ما وصل إليه من قمة العلم . . وابنه يزيد عليه وينقل إلى أبنائه ما أخذه عن أبيه . . وما زاد عليه . . وهكذا تنتقل الحضارة الإنسانية من جيل إلى جيل مستوعبة الماضى . . مضيفة إليه من الحاضر لتصل إلى المستقبل . . هذه خاصية للعقل البشرى وحده . . أعطاها الله سبحانه وتعالى له . . وهى خاصية لا توجد فى الحيوانات مثلا . . فأنت تدرب القرد أو الفيل . . أو أى حيوان آخر . . على أن يقوم بأعمال معينة تحتاج إلى شىء من التدريب . . وهو ينجح فى القيام بها . . ولكنه لا يستطيع أن ينقل ذلك إلى أخوته وأولاده . . بل لا يستطيع أن ينقله إلى أحد من بنى جنسه . . فالقرد الذى يتعلم شيئا مثلا . . لا يستطيع أن يعلمه لأولاده . . ليزيدوا عليه ثم يعلموه لأولادهم . . وهكذا . . كما يحدث فى البشر . . ذلك أن وراثة الحضارة خاصية يتمتع بها العقل البشرى وحده . . وهذه الخاصية قد وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى ليستطيع أن يتقدم . . وأن يكون معدا عندما يكشف الله له آياته فى الأرض فيستوعبها . . ولولا تلك الوراثة الحضارية لبقى الإنسان الأول على ما هو عليه . . ولما تقدمت الدنيا كلها . . لأنه فى هذه الحالة حتى لو حصل إنسان على العلم فإنه يعجز عن نقله إلى أولاده . . فينشأ الابن على الفطرة . . وحتى إذا استوعب الابن علما لا ينقله إلى أولاده . . وهكذا يبقى الإنسان بدائيا كأول عصور الحياة . . ولكن وراثة الحضارة التى وضعها الله سبحانه وتعالى فى العقل البشرى وحده قد جعلته يستطيع أن يحقق هذا التقدم العلمى الهائل . . فإذا قال لك أحدهم مزهوا بما حققه الإنسان من العلم الذى أتاحه الله له فى الأرض . . فقل له لا تزه بنفسك ولا بالبشر جميعا . . بل ارجع الفضل إلى الله . . واسجد له شكرا . . لأنه هو الذى اختص عقلك البشرى دون سائر المخلوقات . . لوراثة الحضارة

والعلم . . ولو كان لك عقل كالقرد مثلا . . لبقيت على حالتك بالنسبة للحياة الأولى . . ولما استطعت أن تتقدم خطوة واحدة فى سبيل الحضارة . . وأن تصل إلى هذا العلم الذى أتاحه لك . . فالفضل أولا فى كل تقدم بشرى هو لله سبحانه وتعالى الذى أعطى العقل البشرى خاصية التقدم بأن جعله يستطيع أن يرث الحضارة . . وإذا أردنا أن نسجد شكرا للنعم التى أتاحها لنا الكشف العلمى . . والتقدم التكنولوجى . . فإننا يجب أن نسجد أولا لله سبحانه وتعالى . . الذى وهبنا العقل . . الذى يمكن أن يحقق هذا . . واختصنا بالقدرة على استيعاب التقدم العلمى . . والذين يحاولون استغلال هذا التقدم العلمى بالتشكيك فى قضية الدين . . نقول لهم ارجعوا إلى الأساس . . أولاً . . من الذى حقق هذا التقدم العلمى . . علم اتاحه الله للعقل البشرى . . وكيف استطاع العقل البشرى أن يستوعب العلم . . استطاع أن يستوعبه بالخاصية التى أعطاها الله له . . وميزه بها . . وهى القدرة على استيعاب الحضارة . . والزيادة فيها . . فاستيعاب علم مضى . . والزيادة عليه بعلم قادم . . ثم استيعاب هذا العلم القادم . . فضل لله على الإنسان وحده . . ولو كان للإنسان عقل كسائر الحيوانات مثلا . . لما استطاع أن يوجد حضارة أو يستوعب علما . . والذى خلق هذا العقل البشرى . . وأعطاه هذه الميزات . . هوالله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع أحد أن يجادل فى هذه الحقيقة . .

بعد أن علم الله آدم الأسماء كلها عرضها على الملائكة . . وقال أنبئونى بأسماء هؤلاء . . حينئذ قالت الملائكة سبحانك . . لا علم لنا إلا ما علمتنا . . الله سبحانه وتعالى هنا يريد أن يعلمنا مبدأ هاما . . إنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يميزه على الجنس الأعلى . . وهو وحده القادر على ذلك . . فالملائكة مخلوقات من نور . . والإنسان مخلوق من طين . . والنور مادة شفافة . . والطين مادة معتمة . . ولكن الله سبحانه وتعالى جاء فميز آدم الذى هو من طين بالعلم . . وجعله يتفوق على الملائكة الذين هم من نور . . وتلك لا يقدر عليها إلا الله

سبحانه وتعالى .. معطيا المثل على أنه يستطيع أن يعطى الأدنى ما يتفوق به على الأعلى .. ليقضى على الغرور فى أى من خلقه ..

واعترفت الملائكة بأن علم آدم الذى أعطاه الله له يفوق علمهم .. حينئذ أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم .. وهنا نقطة هامة يثيرها بعض الناس .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن السجود لغيره .. فكيف يأمر الملائكة بالسجود لآدم .. والسجود منهى عنه لغير الله .. نقول لهم .. انكم لم تفهموا ماذا حدث .. إن الملائكة لم يسجدوا لآدم .. ولكنهم سجدوا طاعة لأمر الله الذى أمرهم أن يسجدوا لآدم .. فالسجود هنا ليس لآدم نفسه .. ولكنه لأمر قاله الله سبحانه وتعالى .. تماما كما يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتجه إلى الكعبة فى صلاتنا .. ونسجد .. نحن لا نتجه إلى الكعبة لذاتها .. ولكن طاعة لأمر الله سبحانه وتعالى أن نسجد للقبلة فى هذا الاتجاه .. وكل أوامر الدين من السجود والحج والصوم والصلاة .. إنما هى تنفيذ لأوامر الله سبحانه وتعالى .. فنحن نصلى خمس مرات فى اليوم .. تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم ونصوم رمضان تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالصوم .. ونزكى من أموالنا تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالزكاة .. ونحج البيت تنفيذا لأمر الله سبحانه وتعالى بالحج .. كل هذه الأشياء لا نفعلها اختيارا منا بالنسبة للقبلة أو لعدد مرات الصلاة .. أو للصوم .. أو للحج .. ولكنها تنفيذ لأمر الله بأن افعل ولا تفعل .. وهذا السجود والخضوع هو طاعة لله سبحانه وتعالى ..

● أوامر الله .. تكفى

على أننى أختلف مع بعض الذين يحاولون ربط أوامر الله بأنها مظاهر دنيوية .. فيأتى بعض الناس ليقول لك إن الصلاة هى نوع من الرياضة .. وأنا أقول لا .. إنها طاعة لأمر الله .. ولو كانت نوعا من الرياضة للعبنا الرياضة وتركناالصلاة .. وبعض الناس يقول لك إن الصوم هو للاحساس بشعور الإنسان الجائع .. وأنا أقول لا .. إنه طاعة لأمر الله .. ولو أنه احساس

بالجوع لما وجب الصيام على الجائع الذى لا يجد قوتا يكفيه . . ولأصبح الإنسان الجائع معفى من الصوم . . وهكذا كل مناسك الله . . فالحج يقال عنه اجتماع للمسلمين . . وأنا أقول لا . . بل هو تنفيذ لأمر الله . . ولو كان مجرد اجتماع للمسلمين لعقدنا مؤتمرا اسلاميا يجتمع فيه المسلمون . . واستغنينا عن الحج .

إذن كل مناسك الدين فى افعل ولا تفعل . . إنما نقوم بها لأنها أوامر الله . . دون ما فلسفه دنيوية . . فأنا أتجه إلى القبلة لأن الله سبحانه وتعالى أمرنى بذلك . . وأصلى وأصوم وأزكى لأن الله سبحانه وتعالى أمرنى بذلك . . دون أن يكون هناك أى صلة بين ما أفعل أو الرياضة . . أو الشعور بالجوع . . أو ما يقوله بعض الناس عن مظاهر دنيوية . . يحاولون بها تبرير فروض الله . . والله سبحانه وتعالى حين يقول افعل . . فهذا كاف جدا لأن افعل دون أى مبرر آخر . . وحين يقول لا تفعل فهذا كاف جدا ألا أفعل دون أن يكون هناك مبرر آخر . . ذلك أنه مادام الأمر قد صدر من الله فإن مجرد صدوره من رب العالمين هو سبب اتباعى له . . وليس أى سبب آخر . . فتلك هى العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى . . فالله هو الخالق . . وهو الذى قال اعبدنى بأن تفعل كذا وكذا أو كذا والله هو الأحق بأن يخبرنا بطريقة عبادته والتقرب إليه . . وهذه رحمة منه سبحانه وتعالى أن يسر لنا هذا السبيل . . وأظهر لنا ما يجب أن نفعله لعبادته والتقرب إليه . . ونحن حين نأخذ ذلك نأخذه شاكرين لله سبحانه وتعالى أن بينّ لنا الطريق إلى عبادته . . وإلى الحياة الطيبة التى وعد بها عباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة . .

سجد الملائكة . . طاعة لأمر الله أن يسجدوا لآدم . . ولم يسجدوا لآدم . . لأنه هو آدم . . أو هو إنسان . . ولكن سجدوا لأن لله أمرهم أن يفعلوا ذلك . . تماما كما نتبع نحن تعاليم الله فى السجود والعبادة كما بينها الله لنا . . هنا حدثت معصية ابليس . . وابليس كان من الجن . . ومن الجن المقربين . .

ولكن الكبرياء دخلت نفسه .. والغرور ملكه .. فرفض السجود .. وقال « أأسجد لمن خلقت طينا » ..

وهنا يدور جدل كبير .. فأبليس قد عصى الله .. ورفض أن يسجد لآدم فطرد من الجنة ولعن إلى يوم القيامة ووعد بعذاب شديد فى الآخرة .. وآدم قد عصى ربه وأكل من الشجرة .. فتاب الله عليه ولم يطرده من رحمته .. بل أنزله إلى الأرض وأرسل له هدى من عنده ليتبعه .. بعض الناس يقول لماذا غفر الله لادم ولم يغفر لأبليس .. وأنا أقول إن الفرق بين المعصيتين كبير .

وهنا لنا وقفة .. لو لم يكن الله سبحانه وتعالى قد أعلن بوضوح أن أبليس مطرود من رحمته .. رجيم ومبعد .. ربما قلنا إن ابليس مكلف فعصى .. وهو عرضة أن يعود إلى منهج الله فيقبل الله توبته ويغفر له فيصبح معفى عنه .. مغفورا ذنبه .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقطع أى حس بالظن بوسوسة الشيطان .. ولذلك فقد حكم عليه هذا الحكم المطلق الذى لا رجعة فيه .. لماذا ؟ لأن معصية ابليس هى معصية كبيرة .. لا يمكن أن تغتفر .. فأبليس قد رد الأمر على الله سبحانه وتعالى .. وعندما طرده الله من رحمته لم يتب .. ولكنه قال .. بعزتك لأغوينهم أجمعين .. وهنا يجب أن ننظر إلى جلال القسم الذى يدل على ذكاء ابليس .. فانه لم يجد منفذا لأن يمضى فى معصيته فى الأرض .. إلا عزة الله سبحانه وتعالى .. فالله سبحانه وتعالى عزيز .. وهو فى عزته ليس محتاجا لأحد من خلقه .. بل أن الخلق هم المحتاجون لله سبحانه وتعالى .. ولكن الله غنى عن العالمين .. ومعنى أنه غنى عن العالمين .. أى غنى عن كل ما خلقه من أنس وجان .. وملائكة .. وأرض .. وسماوات .. وكل خلق له .. فمن هذه النقطة .. نقطة العزة استطاع ابليس أن ينفذ بقسمه .. ليقول لله سبحانه وتعالى بعدم حاجتك إلى هؤلاء جميعا .. وإلى خلقهم وأرزاقهم إلى يوم القيامة .. سأقوم بأغوائهم ..

● الغواية والإنسان

وما هى الغواية ؟ هى ابعاد الناس عن طريق الله . . وتزيين الباطل لهم . . فالمنهج فى افعل ولا تفعل . . انما يريد الخير للإنسان . . ولكن مفهوم الخير يختلف عند البشر . . فهناك خير عاجل . . وخير آجل . . ولنقرب هذه النقطة إلى الأذهان . . هب أن هناك طالبين . . أحدهما يقوم للمذاكرة . . والدرس . . والتحصيل . . والآخر يقضى نهاره فى اللعب . . ولا يذهب إلى المدرسة . . كلاهما يريد الخير لنفسه . . ولكن النظرة إلى الخير هى التى تختلف . . فالأول يرى الخير فى المذاكرة والتحصيل . . ليحصل على مستقبل أفضل . . فهو يريد الخير الآجل . . والثانى يريد أن يمتعها فى كل يوم تعيشه . . ثم بعد ذلك يجد نفسه متشردا . . أو سارقا . . ليحصل على رزقه . . هذا هو الفرق بين الاثنين . . والفرق فى النظرة إلى الخير . . والمؤمن ينظر إلى الخير على أساس الدنيا والآخرة . . فهو يريد أن يحقق خيرا فى الاثنين معا . . ومن هنا فإن أى شىء يأتيه فى الدنيا يمنع عنه خير الآخرة . . فهو مرفوض . . بينما الكافر يريد الخير العاجل . . ومن هنا فهو يفعل أى شىء . . ليحصل على خير الدنيا دون أن يعمل حسابا للآخرة . . فإذا استطاع أن يحصل على المال من أى طريق حرام . . أو على المتعة من غير حلال . . أسرع إليها . . ثم يأتى الموت فيجد كل منهما ما قدمه . . الأول قدم الخير للآخرة . . فيجد خيرا . . والثانى لم يقدم شيئا للآخرة فيجد الجزاء . .

إذن . . فمنهج ابليس أن يمنعك أن تفعل شيئا لآخرتك . . ومن هنا فهو يزين لك الحياة الدنيا . . بما فيها من متع مادية ويحاول أن ينسيك الآخرة بما فيها من نعيم دائم . . وهذه الغاية تتم بقسم ابليس بعزتك . . وهو يدخل من باب استغناء الله عن كل خلقه . . فلو أراد الله سبحانه وتعالى خلقه جميعا مهديين إلى الصراط المستقيم . . لما استطاع أن يتقدم منهم . . ولما استطاع أن يغويهم . . ولذلك استثنى وقال : إلا عبادك منهم المخلصين . . أى ياربى سأغوى خلقك . . إلا الذى تريده أنت وتخصه بالهداية . . فإننى لا أستطيع أن يبقى لى

سلطان عليه .. لأن كلمة الله هى العليا .. ولا أحد يستطيع أن يقف أمام سلطان الله ..

ثم قال ابليس أنا لن أقعد لهم على طريق الشر .. لأن طريق الشر غير محتاج إلىّ .. أنا لا أذهب إلى الخمارة .. أو إلى بيت الدعارة .. أو إلى أماكن القمار .. وإنما سيكون عملى فى مهابط الطاعة .. فى أماكن العبادة .. هؤلاء هم الذين أغويهم أنا .. لأن هذا عملى ، أن أخرج هؤلاء عن طاعتك .. فكل إنسان اتبع الشر .. فهو قد اتبع طريقى دون حاجة إلى غواية .. ولكن كل إنسان يريد أن يعبد الله .. فمهمتى أن أغويه وأبعده عن هذه العبادة .. لذلك قال .. « **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** » .. ولم يقل .. لأقعدن لهم على الطريق المعوج ..

وهكذا تتضح ضخامة معصية ابليس .. فهو قد تحدى الله بالمعصية .. ورد الأمر عليه قائلا .. أنا لا أسجد لمن خلقت طينا .. أى أن ابليس اعتبر نفسه أكبر من أن يخضع لأمر من الله سبحانه وتعالى .. ووضع نفسه فى موضع مساو للآمر .. يرد عليه أمره .. فيقول له اسجد .. ويقول لن أسجد .. ثم لم يقل له لن أسجد .. وكفى .. بل قال له لن أسجد لمن خلقت طينا .. أى أنه وضع علمه فى وضع مساو لعلم الله .. وقال هذا خلقته من طين ولن أسجد له لأننى أعلم أننى خير منه .. وإن كنت قد أمرتنى بالسجود .. فلن أسجد لأن لى علما مساويا لعلمك .. وأنت خلقت هذا من طين .. وخلقتنى من نار .. وأنا أفضل منه .

كانت هذه هى المعصية الكبرى التى لا يمكن أن تغتفر .. ثم بعد ذلك كان هناك طريق التوبة .. ولكن ابليس بدل أن يسلك طريق التوبة .. أمعن فى مكابرته .. فقال .. « **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** » .. اننى لن أتركهم يعبدونك ياربى .. ولكنى سأحيط بكل مطيع لك .. مؤمن بك .. لأفسد عليه إيمانه ..

وأزين له طريق السوء . . والبعد عن منهج الله سبحانه وتعالى . . إلا الذين اخترت . . فهؤلاء لا أستطيع أن أقربهم لأنك تحميهم وتدافع عنهم . . وأنا مخلوق . . وأنت الخالق . . وهكذا حتى فى المضى فى المعصية أحس ابليس أنه لا يستطيع أن يقترب من عباد الله المخلصين الذين هداهم إليه . .

● اصرار على المعصية

ثم ننظر إلى الامعان فى المعصية . . ويمضى ابليس فى امعانه فيقول . . « **ثم لآتينهم من بين أيديهم . . ومن خلفهم . . وعن ايمانهم . . وعن شمائلهم** » . . إذن ابليس قال لآتينهم من أمامهم . . ومن خلفهم . . وعن اليمين . . وعن الشمال . . ولكنه لم يقل لآتينهم من فوق . . أو من تحت أرجلهم . . لم يذكر شيئا عن الجهتين الباقيتين . . رغم أنهما من الجهات الست المعروفة . . ذلك لأنه يعلم جيدا أن ما فوق الإنسان يمثل الفوقية الالهية . . ومكان سجود الإنسان موضع قدميه يمثل مكان العبودية . . ولا يتأتى للشيطان أبدا أن يعيش فى مستوى علو إلهى فوقى . . ولا فى مستوى تحتى يمثل مكان السجود والعبودية . . إذن انتهت الجهات الست . . ولم يستطع ابليس أن يدعى أنه سيأتى من مكان فوقى . . أو من مكان تحتى هو مكان السجود والعبادة . . والعجيب أنك إذا نظرت إلى نظريات الالحاد فى كل عصر . . تجدها من هذه الجهات الأربع . . يقول لك هذا تقدمى . . أو رجعى . . أى خلفى يريد العودة إلى الوراء . . أو يمينى . . أو يسارى . . تلك هى نظريات الالحاد الأربع التى يأتى منها ابليس . . ولكننا لسنا فى واحدة من هؤلاء . . لسنا تقدميين . . ندعو إلى التحلل والالحاد . . والاباحية . . ولسنا رجعيين نسير على ما وجدنا عليه آباءنا . . ولسنا يمينيين على عرف العصر . . ولا نحن يساريون على عرف العصر . . وانما نحن أمة محمدية فوقية . . كل أمورنا تأتى من السماء . . ولذلك فإنك إذا خضعت إلى حكم الله سبحانه وتعالى . . فاعلم انك غير خاضع لمساويك . . ولا أنت ذليل لخلق مثلك . . بل أنت خاضع للذى هو أعلى منك . . والذى

تخضع له كل المخلوقات طوعا فى الحياة الدنيا . . وكرها فى الآخرة . . وأنت فى ذلك مساو لأعلى خلق الله فى الأرض . . فهو خاضع لله . . وأنت خاضع لله . . وهو مطلوب منه أن يطبق منهج الله . . وأنت مطلوب منك أن تطبق منهج الله . . إذن لا ذلة هنا أبدا . . بل أنت مساو لأكبر خلق الله فى الدنيا . . وربما أنت أفضل منه فى الطاعة . . فإذا قال لك أحدهم إن العبودية ذل . . تقول له أبدا . . بل الذل هو فى اتباع غير منهج الله . . فإذا أنت اتبعت غير منهج الله تصبح ذليلا لبشر مثلك . . مهانا فى حياتك . . مقضيا عليك بالذلة . . ولكن إذا خضعت لله وحده فأنت وكل خلق الله فى منزلة متساوية . . ترفع رأسك أمام الجميع لأن أى إنسان مهما علا . . فهو خاضع لمنهج الله . . إما طوعا فى الحياة الدنيا . . وإما قهرا فى الآخرة . .

● **أمية الرسول**

. . ولعل هذا هو الذى جعل الله سبحانه وتعالى يختار رسولا أميا ليحمله بآخر رسالة من السماء إلى الأرض . . وما هو معنى أمى . . معناه أنه كما ولدته أمه . . لم يأخذ ثقافة من خلق من خلق الله مساو له . . لا تثقف على الشرق ولا على الغرب . . ولا قرأ لفيلسوف ولا لصاحب نظرية . . إذا كان الإنسان فى هذه الحالة لم يقرأ لمساو له . . ولم يأخذ من ثقافات الدنيا شيئا . . يكون كل ما يأتى به معجزا ومعجبا . . لأنه من فوق . . من الله سبحانه وتعالى . . إذن فالأمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم شرف وشهادة . . فهى شرف له . . لأن الذى نزل به القرآن من اعجاز . . قد هز الدنيا كلها . . وشهادة لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه جاء بهذا الكلام من فلاسفة الشرق . . أو فلاسفة الغرب . . بل هذا الكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى . . والقرآن الكريم الذى فيه اعجاز متجدد . . وعطاء مستمر للبشرية كلها حتى يوم القيامة . . إذا جاء على يد رسول أمى فهو شهادة له بأنه منهج السماء . . وما اختص به رسول لله صلى الله عليه وسلم لا يسرى على البشر من بعده . . فتلك معجزة تختص

بالقرآن الذى نزل على رسول الله . . أما نحن فقد طلب منا الله سبحانه وتعالى أن نتعلم ونقرأ . . ونتدبر فى آيات الله فى الأرض . . لماذا ؟ لأن أحدا منا لن ينزل عليه قرآن أو كتاب من السماء . . فقد انتهت الرسالات بنزول القرآن الكريم . وخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام . . ولذلك لا يكلّفنا الله سبحانه وتعالى بما اختص به رسول الله . . بل يطالبنا بأن نقرأ ونتعلم . .

ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل إلى ارتفاعات حضارية . . وكانت له نظريات عقلية واصلاحات حدث بها الناس . . ليقودوا حركة حياتهم لكان الكافرون قد قالوا إن القرآن الكريم علم بشرى . . ولكن الأمية هنا تأكيد لصلة رسول الله بالسماء وأنه ليس للأرض أى دخل فى هذا المنهج . . وأن هذا المنهج ليس من معطيات عقول البشر . . بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل بعلويته واتصاله بالسماء إلى المنهج الذى يعلم البشر جميعاً . أما القرآن فيعلم البشرّية كلها . . ومن هنا فإن كل ما أوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو من الله .

مادام الشيطان قد قال لأغوينهم . . فإن ذلك يعنى اصرارا على المعصية . . وهنا فرق بين معصية ومعصية . . وفرق بين الاصرار على المعصية والندم عليها والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك . .

● المعصية تختلف

إذن فمعصيتا آدم وابليس الاثنتان من خلق الله . . وكلاهما عصى . . ولكن المعصية تختلف . . فمعصية آدم غفرت له . . ومعصية ابليس لم تغفر . . ذلك لأن ابليس رد الأمر على الآمر . . ودخل فى نفسه الكبر فى أمر من أمور الله . . ووضع نفسه ظلما فى وضع مساو لعلم الله سبحانه وتعالى . . فاستحق بذلك أن يطرد من الجنة . . وأن تنزل عليه اللعنة . . ولكن آدم اعترف بمعصيته . . وقال يارب ان كنت قد عصيت فإنك أنت الحق . . وقولك الحق . . ولكن نفسى ضعفت ولم تستطع الاحتمال . . وهذا هو الفرق بين المعصيتين . . فالأولى دخل

فيها الكبر . والثانية دخل فيها الندم . . وكلتاهما آية . . آية ليفهم الناس المعصية التى تغفر . . والمعصية التى لا يغفرها الله . . فإذا عصى الإنسان . . واستكبر وأصر على ما فعل . . ووضع نفسه فى وضع مساو لعلم الله . . فأخذ يشرع ويحل ما حرم الله . . ويحرم ما أحله . . واتخذ نفسه إلها . . فهو بذلك لا يدخل فى رحمة الله . . أما إذا ندم على ما فعل . . واعترف بأنه ضعف . . وبأن الله سبحانه وتعالى هو الحق . . وقوله الحق . . فقد دخل فى الرحمة والغفران . .

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم . . عرفه بعدوه وهو الشيطان . . ودربه على حياته القادمة فى الأرض . . فقال له إن هذا الشيطان عدو لك . . فلا يغوينك . . لماذا ؟ . . لأن اغواءه لك لا يحمل الحياة الطيبة . . فأنت إذا اتبعته أصبحت شقيا . . سارقا . . أو قاتلا . . معتديا على أعراض الناس . . مذموما من الجميع فى الدنيا والآخرة . .

ورغم ذلك فإن الله سبحانه وتعالى الذى خلق النفس البشرية عالم يضعفها . . ولذلك فهو يقول « وخلق الإنسان ضعيفا » . . والضعف هنا عدم القدرة على اتباع منهج الله . . رغم أن فيه الحياة الطيبة . . ذلك أن الإنسان عجول . . يريد كل شيء . . ويريده فى وقت قصير جدا . . ولو أنه صبر لنال ما يريد . . ولو أنه اتبع منهج الله لأوتى أضعاف أضعاف ما سيحصل عليه من المعصية . . ولكنه يريد كل شيء فى لحظة . . وهو يريد خلودا فى الأرض . . وما هو بخالد . . ويريد مالا لا يفنى . . والمال صفته الفناء . . إما يفارقك هو . . أو تفارقه أنت . . وكلاهما فناء له لأنك أصبحت عاجزا عن أن تصل إليه . . ومن هذه النقطة استطاع الشيطان أن يغرى آدم فى الجنة . . ويجعله يأكل من الشجرة التى حرمها الله . . والشجرة هنا رمز لكل معصية . . والخلود والمال الذى لا يفنى رمز لكل طمع بشرى . . ولقد كانت التجربة ليحدث شيئان . . أولهما أن يعلم الإنسان أن ما يعده الشيطان غير صحيح . . بل أحيانا يأتى بعكس ما هو مطلوب منه . . فالإنسان قد يزين له الشيطان قتل إنسان آخر . . ويقنعه بأنه لن يقع فى قبضة العدالة أبدا . . فإذا

ارتكب الجريمة كان بعد ساعات فى يد العدالة .. لماذا ؟ .. لأن الشيطان يريد المعصية .. ويريد اهلاك العاصى فى نفس الوقت .. ذلك أنه يحس بعداوة رهيبة للإنسان .. فهو يعتقد أن الإنسان كان سبب طرده من الجنة .. وسبب لعنة الله فى الدنيا والآخرة .. كل هذه الأشياء قد خلقت بغضا رهيبا فى الشيطان للإنسان .. ولذلك فهو يغريه ليهلكه .. يزيد له أن يفعل .. فإذا فعل يهرب الشيطان بعد أن أوقعه فى المعصية ويتركه لأسوأ الجزاء فى الدنيا والآخرة .

ولقد كان من رحمة الله سبحانه وتعالى أن أخبرنا بذلك لنتخذ حذرنا .. ونتقى وسوسة الشيطان .. وأعطانا التجربة المادية لآدم .. لنعلم أن وسوسة الشيطان وهم من الغرور .. وتزيين للباطل .. وأن الإنسان لن يحصل على شيء من هذا كله .. ولذلك فإن معصية الشيطان تختلف عن النفس الأمارة بالسوء .. فالنفس الأمارة بالسوء إذا أرادت معصية .. أصرت عليها وألحت حتى يقوم صاحبها بارتكابها .. وهى هى نفس المعصية .. لا تتغير ولا تتبدل . ولكن اغواء الشيطان مختلف عن ذلك .. ذلك أنه يريد المعصية لمجرد المعصية .. فإذا وجد إنسانا قويا فى ناحية من النواحى .. اتجه إلى ناحية ثانية .. لأنه لا يريد هذا اللون من المعصية فقط .. ولكنه يريد المؤمن عاصيا على أى شكل من الأشكال .. فإذا عز عليه باب .. يطرق بابا آخر .. وهكذا يظل يحاور النفس المؤمنة .. يزين لها هذا فلا تأخذه .. فيزين لها ذلك .. ويأتى عن طريق فيجده مغلقا .. فيأتى عن طريق آخر .. وهكذا يظل يحوم حول النفس المؤمنة اغراء من كل ناحية .. حتى تسقط النفس فى معصية من المعاصى .. ولقد كانت رحمة الله بالمؤمن .. ان دله على طرق الشيطان من كل ناحية من النواحى .. ودله على الطريقة التى يقى نفسه بها ..

● **الإنسان .. وعدوه**

وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان .. وعرفه عدوه فى الأرض .. وعرفه الطريق الذى يعمل به .. وبين له كيف أن الشيطان لا يقدم إلا غرورا

للنفس .. وأن مهمته أن يخلخل منهج الله .. بصرف النظر عن نوع المعصية .. ودلنا على أنه بقراءة القرآن نبعد الشيطان عن أنفسنا .. ولكن بعض الناس يقول أنه يقرأ القرآن .. ومع ذلك فإنه لا يحس بالوقاية من وسوسة الشيطان . نقول له إن هناك شيئا اسمه الفاعل .. وشيئا اسمه القابل .. وكلنا يستمع إلى القرآن .. ولكن درجة التقبل ليست عندنا واحدة .. بل كل بدرجة إيمانه .. مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ..

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

سورة محمد آية ١٦

أى أنهم يسألون عن القرآن لأنه لم يؤثر فيهم .. القرآن فاعل صحيح .. وإنما المستقبل غير موجود .. وحتى نوضح هذه المسألة فى الأمور المادية نقول لك إذا أتيت بثلاثة أشخاص .. كل واحد منهم مختلف فى درجات البصر .. فالأول بصره حاد .. والثانى متوسط .. والثالث ضعيف .. ووضعتهم فى مكان خلوى وسألتهم ماذا يرون عند حافة بصرهم .. فسيروى لك كل واحد منهم شيئا مختلفا .. ولكن الوجود أمامهم هو شيء واحد لا اختلاف فيه .. والمسألة أن كل واحد منهم قد رأى بقدر قوة بصره .. بل إن الشيء الواحد قد يؤثر تأثيرا مضادا .. إذا كان المستقبل مختلفا فأنت إذا نفخت فى يدك فى البرد .. تريد أن ترفع درجة حرارتها لتسخنها .. وإذا نفخت فى الشاى فأنت تريده أن يبرد .. الفعل واحد .. هو اخراج الهواء من الفم .. ولكن المتقبل للفعل مختلف .. ومن هنا كان أثر الفعل عكسيا .. ففى المرة الأولى كان لرفع الحرارة .. وفى المرة الثانية كان لخفضها .. مع أن الحادث واحد .

كذلك القلوب .. بعضها متفتح للايمان يجهد نفسه فى طاعة الله . ويحمل نفسه على المنهج .. والثانى باع كل شيء فى سبيل شهواته .. وفى ذلك يقول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾

سورة فصلت آية ٤٤

وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى أن يخبرنا أن الفعل قد يكون واحدا . . والاستقبال له مختلفا . . فيجب لكى تستقبل القرآن أن تصفو أداة الاستقبال للقرآن . . وتتقى كل خاطر يبعدك عن المنهج . . وتبتعد عن كل اغراء يوقعك فى الخطيئة . .

وأنت تواجه الشيطان . . فإنك خلق لله . . وهو خلق لله . . ومادمت تواجهه مواجهة منفردة . . فإن المعركة هنا تعتمد على قوتك وقوته . . ولكنك إذا واجهته وأنت ملتحم بالله . . فلا يستطيع أن يقدر عليك . . ولنوضح هذه النقطة قليلا . . نقول لو أن طفلا صغيرا . . مشى فى الشارع وحده . . وقابله طفلان صغيران . . المفروض هنا أن تقع معركة يستخدم كل منهم قوته . . ولكن هب أن الطفل نزل مع أبيه . . وأبوه هذا شاب قوى . . هل يستطيع الطفلان الآخران أن يتعرضا له . . أبدا . . إنهما يهربان من وجهه لماذا ؟ . . لأن المعركة لم تعد صراعا بين قوة صبى . . وقوة صبى آخر . . بل دخل فيها من هو أقوى من الصغيرين بمراحل . . وهكذا أنت فى معركتك مع الحياة . . فى كل شيء تعمله . إذا دخلت وأنت موصول بربك فمحال أن يهزمك أحد . . لأن قوة الله معك . . تجعل الهزيمة محققة لمن يريد أن يؤذيك . . ولكن متى تتعرض للهزيمة والمهانة . . إذا دخلت المعركة بعيدا عن ربك . . فإنك فى هذه الحالة تواجه قوة متساوية . . مع قوة متساوية . . والغلبة لمن هو أقوى . . أنت هنا أبعدت قوة الله عن جانبك . . وهى القوة التى تضمن لك النصر . . والتى

لا يستطيع أن يهزمها أحد . . ولا يصل لقدرتها أحد . . وأنت بذلك تتخلى عن أقوى سلاح فى حياتك . . وأقدر من ينصرك فى كل أزمة . . تتخلى عن القوة الحقيقية فى الكون . . عن الفعال لما يريد . . وتدخل مغترا بقوتك وقدرتك وحدك . . ثم تتعجب بعد ذلك كيف هزمت . . ولو انك فكرت ثانية واحدة . . لعرفت السبب . . ولعلمت أنك جردت نفسك من أقوى وأقدر أسلحتها وأنه يجب ألا تتعجب وتسأل نفسك لماذا هزمت . . لأن السبب معروف . .

● لا سلطان علينا

وأنت حين تستقبل القرآن بصفاء . . وتستعيذ بالله من الشيطان . . يصبح الشيطان لا سلطان له عليك . . ذلك أن المؤمنين لا سلطان للشر عليهم . . ولذلك، فإن الشيطان يأتى فى الآخرة ليقول « **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** » . . ومع ذلك فإن أولى خطوات الشر تبدأ من النفس البشرية . . فالشيطان لا يستطيع أن يجبر أحدا ويقهره على الشر . . ولا يستطيع أن يستخدم سلطان القهر لمن لا يريد أن يفعل . . ولكنه أولا يجب أن يجد استمالة وقبولا من النفس البشرية . . يجب أن يكون هناك اقناع بالشر . . والاقناع هنا لا يكون بالحقيقة . . ولكن بالغرور . . ولا يدخل إلى نفس متواضعة . . وانما يدخل على نفس يملؤها الكبر . . ويصور لها فكرها . . انها تستطيع أن تصنع قدرها . . وأن تغتنم الفرصة . . وأن تصل بالدس والغش والخداع والشر . . إلى ما تشتهيه . . هذه النفس هى التى فيها الاستجابة . . الاستجابة للشر . . والتى تبدأ مسيرتها مع الشيطان من هذه النقطة . . وتمضى الأحداث . . وربما تمر السنوات . . ثم يعرف الإنسان أن كل ما فعله لم يحقق له شيئا . . بل أتى له بعكس ما يريد . . فيصبح مكروها من الناس . . مذموما . . ليله قلق . . ولا يرى فيه النوم . . والنهار شقاء لا يرى فيه الراحة . . وكل ما حوله من نعيم لا يحمل قطرة واحدة من سعادة . .

فإذا أردت أن تتخذ الطريق الذى رسمه الله للحياة الطيبة فى الأرض . . فأول شيء يجب أن تعلمه أنك غير مقهور على الشر . . ولا على معصية الله . . بل إنك تفعل ذلك بمحض ارادتك . . وباستجاباتك لهذه الأشياء . . علك تحقق منها نفعا عاجلا . . أما إذا لم تستجب . . فإنك تظل معصوما منها . . ولذلك لا تصدق من يقول لك إنك مقهور على الشر . . بلْ اعلم أن العيب فى نفسك . . ولا تصدق من يقول لك مثلا إنه لو لم تعرض عليه رشوة . . أو لم ييسر له اختلاس . . لظل نزيها . . فالأصل هو فى النفس . . وفى استجابتها أولا . . ولولا أن التمنى كان فى نفسه . . والرغبة ملكت قلبه . . ما مد يده إلى حرام . . وما مشى فى طريق الشر . .

ويجب أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان يريدنا بلا معارض وبلا موسوس . . فهو قادر على ذلك . . وإذا كان يريدنا أن نكون مقهورين على الطاعة . . فهو قادر على ذلك . . ولكنه يريدنا أن نأتى إليه باختيارنا . . وأن نعبده اختيارا من أنفسنا . . وليس قهرا منها . . ومن هنا فكان لابد أن يكون هناك الإيمان والمعصية . . هذا له حلاوة . . وهذا له اغراء عاجل ليتم الاختيار عن حقيقة واقعة . . وليكون هذا الاختيار هو الطريق إلى الجنة . . وإلى الحياة الطيبة فى الدنيا . . ولذلك فإن وجود الشيطان واغراءاته وكل ما هو موجود فى الحياة الدنيا . . إنما هو ضرورة لازمة للطاعة . . فلو أنها ليست موجودة . . لكان الإنسان مقهورا على الطاعة . . ليس له طريق غيرها . . ولانتفت بذلك كل الحكمة من الجزاء والعقاب . . ولانتفت حكمة خلق الحياة . . والدنيا والآخرة . .

وجود الاغراء الدنيوى . . أو الشر . . أو وسوسة الشيطان حكمة بالغة للحياة الدنيا . . لأن الاختيار يقتضى وجود بديلين يختار الإنسان بينهما . . ولولا تزيين الشيطان للمعصية ما عرفنا قدر حب الله فى قلوبنا . . حين ترى نفعا عاجلا مزينا له بأسلوب تهواه نفسه . . ثم تعرض عنه وتقول إنى أريد الله . .

فذلك أقوى مراتب الطاعة . . احساس العبد بحبه لربه . . ولأن هذا الإله يجب أن يعبد وأن يترك من أجله كل ما أخبرنا به أن يترك ، هو مقياس الطاعة فى النفس البشرية . .

ولنضرب مثلا يقرب ذلك إلى الأذهان . . هب أن أما دعيت إلى حفل كبير فيه من زينة الدنيا ما فيه . . وبعد أن ارتدت أفخر ثيابها فوجئت بطفلها وقد ارتفعت درجة حرارته يشكو من الحمى . . حينئذ فهى تلقى بكل ما ارتدته جانبا . . وتجلس بجوار طفلها تمرضه . . وتستدعى له الطبيب . . مقياسان فى قلب الأم تفاعلا معا . . المقياس الأول حبها . . لأن تذهب إلى هذا الحفل . . والمقياس الثانى حبها لأن تؤدى واجب الأمومة نحو طفلها . . والذى يتغلب هو المقياس الأقوى . . ولكن لو لم يوجد هذا المقياس . . أى لو لم تدع الأم إلى الحفل . . ولم يمرض طفلها فى نفس الوقت . . فهل كنا نستطيع أن نعلم أن هذه الأم بارة بطفلها . . أو أنها ستلقيه إلى أحد الخدم أو أحد الجيران . . وتذهب هى لتستمتع بوقتها . . ما كان يمكن أن نعلم لو لم يوجد المقياسان فى وقت واحد . . كذلك الخير والشر . . والطاعة والمعصية . . ووسوسة الشيطان وحب الله . . كلاهما يجب أن يوجد فى النفس البشرية فى وقت واحد . . لكى نعلم مقدار حب العباد لله . . أو مقدار إعراضهم عن ذلك الحب . .

● الرحمة والتجربة

والله سبحانه وتعالى كان رحيما بنا فى التجربة . . فهو لم يخلقنا ليلقى بنا إليها دون أى تدريب سابق . . بل خلقنا ودربنا وأفهمنا ماذا سيحدث . . فالشيطان عصى الله أمام آدم . . ثم توعد آدم . . والله سبحانه وتعالى نهى آدم عن الأكل من الشجرة . . وقال لآدم انى حرمتها لأنها تهلكك وتضرك . . وجاء الشيطان بمنطق الكذب . . فقال إن هذه الشجرة تمنحك الخلود . . وملكا لا يبلى . . وأن الله سبحانه وتعالى منعك من الأكل منها . . لأنه لا يريد أن تصبح ملكا . . أو خالدا . . كان هناك قول الله الحق . . وكان هناك قول الشيطان الذى لا يحمل

إلا الكذب . . وعدم الصدق . . ومع ذلك ضعف آدم . . ضعف أمام رغباته في الخلود . . وضعف أمام رغباته فى الامتلاك . . مع أنه كان يعيش فى جنة يأكل فيها بلا تعب ولا اجهاد . . ورغم أنه كان يعيش فى تلك الجنة يذهب فيها إلى المكان الذى يريده . . ويجد رزقه وقتما يريد . . وعندما يشتهى . . أى لا يحتاج لشيء أكثر مما وفره الله له . . إلا أن الطمع البشرى بلا حدود . . أو مع أن الله سبحانه وتعالى قد وفر لآدم الاستمتاع البشرى . . فقد بقى الطمع فى نفسه . . واستطاع الشيطان أن يدخل إليه من هذه الناحية . .

التجربة كانت فيها معصية من آدم . . لأن الله سبحانه وتعالى كرمه . . ولكن نفس آدم أساءت الظن بالله . . لأن الله سبحانه وتعالى وفر له سبل الحياة بلا عناء ولا تعب . . ولكنه أراد أن يزداد من ذاتيته . . كأن هناك من يملك شيئا . . ولأنه حين حرم الله عليه الشجرة حرمها لأنه يعلم انها ضارة به . . تشقى . . ولكن آدم لم يفطن لهذا . . ولم يفطن أن تحريم الله له بالنسبة لهذه الشجرة . . لابد أن يحمل خيرا له . . لأن الله سبحانه وتعالى حين خلقه من طين . . أمر من هم أعلى منه خلقا . . الملائكة والجان . . وهم مخلوقات من نار . . ومن نور . . أن يسجدوا له . . وفى هذا تكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم . . فيعلم أن ربه الذى كرمه بأن يسجد من هم أعلى منه خلقا لآدم . . لا يمكن أن يريد به السوء . . بل لابد أنه يريد به خيرا . . وإلا فلماذا كرمه . . أنت حين تكرم إنسانا . . وتعمل كل شيء من أجله . . فإن ذلك دليل على حبك له . . ورغبتك فى تحقيق الخير . . ولو أن الله سبحانه وتعالى أراد بآدم شرا . . لفعل . . ولما أخضع ملائكته بأمر السجود لآدم . . هذا التكريم كان يجب أن يلتفت إليه آدم . . ونلتفت إليه نحن أيضا . . لنعلم أن الله سبحانه وتعالى كرمنا . . وفضلنا على خلقه . . ولا يمكن أن يكون هذا التكريم . . لأن الله يكرهنا . . بل لأن الله يحبنا . . ويريد لنا الخير . . ونقبل على منهج الله من منطق هذه النقطة . . فنعلم يقينا أن ما قال الله سبحانه وتعالى عنه افعل . . فهو

خير لأن الله يريد لنا الخير . . وما قال عنه لا تفعل فهو الشر . . لأن الله لا يريد لنا الشر . .

ثم هناك لفتة أخرى يجب أن تؤكد هذا المعنى . . هى معاداة الشيطان للإنسان . . تلك المعاداة التى جهر بها . . ورفضه أمر الله بالسجود . . كانت هذه يجب أن تلفتنا إلى أن الشيطان عدو لنا . . فإذا وسوس لك أن افعل كذا . . فهو يريد بك شرا . . وإذا وسوس لك ألا تفعل كذا . . فهو يريد أن يمنع عنك الخير . . كانت هذه هى التجربة التى مر بها آدم فى الجنة . . ومع ذلك ضعفت نفسه وعصى . . وأكل من الشجرة . . وهنا ظهرت الحقيقة . . فلو أن آدم لم يأكل من الشجر لظللنا حتى يومنا هذا نقول . . لو أنه أكل منها لأصبح خالدا . . وأصبحت ذريته من الخالدين . . وأصبح عنده مال لا يفنى . . وربما كان الشيطان مصدقا عندنا . . ولكن كون آدم أكل . . فظهر أن كل ما قاله الشيطان من اغواء . . هو كذب . . يريد به أن يطرد آدم من الجنة . . فلا هو أصبح من الخالدين بعد أن أكل . . ولا هو أصبح صاحب مال لا يفنى . . ولكن ظهرت عورته أمام كل الخلق . . وأسرع إلى الشجرة يقطع من أوراقها ليدارى هذه العورة . . إذن فالحقيقة أنه عندما اتبع اغواء الشيطان . . لم يحصل على شى إلا الضرر . . والطرد من الجنة . . والشيطان يريد أن يفضح عوراتنا . . ويظهر السىء منها أمام الدنيا كلها . . منذ خلق الله آدم حتى هذه الساعة . . وإلى آخر الخلق . .

● وامتدت رحمة الله

وهكذا كانت التجربة والواقع . . قبل أن ينزل آدم إلى الأرض . . الله سبحانه وتعالى أعطاه أمرا . . والشيطان أغواه على معصيته . . وظهر أن أمر الله هو الخير . . وأن وسوسة الشيطان كلها كذب وخداع . . واغراء بلا حقيقة . . وكان الله رحيما أن أعطانا هذه التجربة . . وذكرنا بها فى قرآنه الكريم . . علنا نفيق . . ونعرف الحقيقة . . ونعلم أن الله سبحانه وتعالى يريد بنا الخير . .

ولا يريد لنا الشر ولا العذاب أبدا . . وأننا إذا أحببنا الله . . أحبنا ودافع عنا .
وامتدت رحمة الله إلى الإنسان فى الأرض . . ثم علمه كلمات يتوب عليه بها . . ويمحو له الذنوب . . ويغفر الخطايا . . بشرط أن يكون فى النفس البشرية ندم آدم . . ولا يكون فيها استكبار ابليس . . وقال إذا ضعفت نفسك فاستعذ بى من الشيطان . . وأنا أعيذك منه . . وقال قبل أن تقبل على أى عمل . . اقبل عليه بقولك باسم الله . . ذلك أنك لا تبدأ باسم الله إلا إذا كان العمل الذى تعمله خيرا . . فإنك تستحى أن تبدأ معصية باسم الله . . وعلمنا أن نقول بسم الله الرحمن الرحيم . . لأن الله سبحانه وتعالى قد خلق لنا الرحمة . . وأنت حينما تعمل أى عمل . . وفى بالك الله سبحانه وتعالى . . فانه سيعطيك العطاء فى الدنيا . . والثواب فى الآخرة . . واياك أن تستحى إن كنت عاصيا لله . . أن تستفتح أعمالك باسم الله . . لأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الحقد . . ولا يتغير على خلقه . . فأنت إذا عصيته . . لا يتغير ويقول . . أنا سأطرد هذا العبد . . ولن أتقبل منه شيئا . . بل انه بمجرد أن تقول بسم الله الرحمن الرحيم . . وتقبل على الله . . يقبل الله عليك . . فإذا كنت قد عصيت الله فى شىء . . فتذكر أنه رحمن . . رحيم . . وأنه يقبل على كل عاص . . فى اللحظة التى يتوب فيها ويعود إلى الله . . إن الله سبحانه وتعالى لا يحقد . . ولا ينفعل . . ولا يتغير . . وأنت عبد من عباده عندما ترجع إليه تجده الرحمن الرحيم . .

والله سبحانه وتعالى حين شرع العقوبة لأى معصية . . فمعناه أنه شرع لها الوجود . . وإلا فلماذا يضع الله عقوبة لشىء ليس موجودا . . وكما شرع لها الوجود . . شرع لها التوبة . . باب ليخرج العاصى منه . . فيغفر له . . فإذا كنت قد عصيت الله فلا يجب أن تستحى أن تلوذ برحمة الله . . فالله سبحانه وتعالى رحمن رحيم . . كلمة رحيم مأخوذة من الرحمة . . ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا . . أنا أريد بكم الخير حتى ولو عصيتمونى . .

ولذلك كتبت على نفسى الرحمة . . فإذا كنت عاصيا فلا تستحِ أن تلجأ إلى رحمتى وتوبتى . .

وهكذا نرى مدى حب الله سبحانه وتعالى لعباده . . يأتى أولا ليخضع الكون لهم . . ويخضع من هم أعلى منهم . . كالملائكة . . ثم يقول لهم . . اننى أحبكم . . ولذلك كرمتكم . . وما سأقوله لكم هو الخير فاتبعوه . . وما سأنهاكم عنه هو الشر فانبذوه . . ثم تأتى التجربة فى معصية . . فنعرف صدق حب الله سبحانه وتعالى لنا . . ورحمته بنا . . ونعرف أنه قد منع آدم من الأكل من الشجرة . . لأنها شر . . والشيطان أغراه بها لأنها شر أيضا . . ولكن الذى منع وهو الله يريد لنا الخير . . والذى أغرى هو ابليس يريد بنا الشر . . وتحدث التجربة واقعا . . بعد أن كانت نظرية . . ثم ينطلق الإنسان إلى الأرض . . يحمل التجربة والتوبة . . فيأكل من مائة شجرة . . فيقول الله سبحانه وتعالى سأفتح لك باب توبتى مادمت نادما . . ولن آخذ منك رحمتى . . فأنا أرزق عبادى جميعا . . المؤمن والكافر . . والعاصى والمطيع . . وتلك رحمتى بعبادى . . علّ العاصى فى يوم حين يحس بنعمتى ورحمتى يصبح مطيعا عابدا ويعود إلىّ . .

على أن هناك نقطة أحب أن أشرحها فى هذا المجال . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى رحيم . . ومعنى رحيم أن هناك مبالغة فى الرحمة . . وبعض الناس يعتقد أن صفات الله سبحانه وتعالى تتأرجح بين القوة والضعف . . فمرة يكون راحما . . ومرة يكون رحمانا . . ومرة يكون رحيما . . نقول له إن هذا خطأ كبير . . فصيغ المبالغة تأتى فى صفات البشر . . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس عنده أن الصفة تضعف . . أو الصفة تقوى . . بل هى ثابتة بلا تغيير . . ولكن المتغير هو متعلقات هذه الصفة . .

ولنشرح هذه النقطة قليلا . . هب أن إنسانا يأكل كمية كبيرة من الطعام . . فأنت تقول عنه أكول . . وهب أنه يأكل كمية صغيرة . . ولكن خمس أو ست

مرات فى اليوم . . فأنت تقول عنه أيضا أكول . . ولو أنه لا يأكل فى كل مرة كمية كبيرة من الطعام . . ولكنه يأكل خمس أو ست مرات فى اليوم . . إذن المبالغة تأتى فى الحدث . . وفى تكرار الحدث . . وإذا أردت أن تفهم التغيير فى متعلقات صفات الله . . فأنت تقول رحمن . . لأنه يرحم المؤمن والكافر فى الدنيا . . ويجعل الأشياء تنفعل لهم . . إذن عدد الداخلين فى رحمة عطاء الله بالنسبة للدنيا . . هم كل خلقه . . ليعطيهم جميعا عطاء ربوبية . . إذن فهو رحمن . . ولكنه فى الآخرة مثلا رحيم . . لأنه يطرد الكافرين من رحمته . . ويبقيها للمؤمنين وحدهم . . إذن الصفة لم تتغير . . ولكن الذى تغير هو من تشملهم هذه الصفة . . ففى الدنيا كل عبد يأخذ من رحمة الله . . عدد هائل . . فهو رحمن . . وفى الآخرة يقل هذا العدد . . وتصبح متعلقات الصفة . . أو من تشملهم الصفة أقل عددا ممن كانت تشملهم فى الدنيا . . فيصبح رحيما . . ومن هنا فإن صفات الله ثابتة . . ولكن من تتناولهم هذه الصفات هم المتغيرون حسب أحوال خلق الله . . وقولك **« وما ربك بظلام للعبيد »** . . معناها أنك نفيت عن الله صفة المبالغة فى الظلم . . ولكنك لم تنف عنه الظلم لأنه قد يكون ظلوما وليس ظلاما . . نقول له إنك لم تفهم الآية . . فتكرار الصفة يوجب نفى المبالغة . . فعدد خلق الله لا حصر لهم . . لو أن الله ظلم كلا منهم ذرة . . لأصبح ظلاما لكثرة عدد الذين ظلمهم . . ولو أن كلا منهم لم ينله إلا ذرة من الظلم . . لذلك نفى الله عن نفسه حتى هذه الذرة . . فقال إنه ليس بظلام . . أى حتى ذرة الظلم فى هذا العدد الهائل لا تصدر عن الله سبحانه وتعالى . .

● **الله . . والعاصى**

إذن بداية العمل ببسم الله . . تعطينا العطاء والثواب فى الدنيا والآخرة . . وتحفظنا من أشياء كثيرة . .

. . ويأتى الله سبحانه وتعالى إلى العاصى فلا يأخذه مرة واحدة . . وإنما يأخذه بعذاب محدود صغير . . فيشكو الى الله سبحانه وتعالى . . ويرفع يديه إلى

السماء . . ويصيح يارب . . فينجيه الله . . وبمجرد أن يحس الإنسان ببعد الخطر . . يعود مرة أخرى إلى الذنب . . بل ربما عاد إلى ما هو أكبر منه . . ناسيا أو متناسيا . . أنه كان يمر بضر . . أو بشدة . . أو بضيق . . وانه رفع يديه إلى السماء وقال يارب . . وكان عدلا ألا تنفتح أبواب السماء لعاص . . وألا ينفذ منها الدعاء الذى قيل بلسان لا يذكر الله . . كان ذلك عدلا . . ولكن رحمة الله سبقت . . فانفتحت أبواب السماء . . واستجيب للدعاء . . وكشف الله الضر . . وبمجرد أن أحس الإنسان أنه قد نجا . . عاد إلى كفره . . فيعود الله سبحانه وتعالى ليذكره به . . ويقول له أفق انك تهلك نفسه . . من تبارز . . وأنت لا قدرة لك . . وأنا وحدى القادر . . ولكن الغرور يركب الإنسان . . فيمهله الله . . ثم يذكره بقدرته عليه . . فيفتح عليه بابا صغيرا من الشدة . . أو الغضب . . فيجأر للسماء . . ويرفع يديه ويصيح يارب . . ويكون عدلا من الله سبحانه وتعالى ألا يتقبل . . ويكون عدلا ألا تفتح أبواب السماء . . ولكن رحمة الله تتدخل . . وترفع الشدة . . وتزيل الكرب . . فإذا أحس الإنسان أنه نجا . . عاد إلى كفره . . إلى أن يفتح الله عليه بابا من الشدة . . أو العذاب لا يغلق أبدا . . لأنه صمم على الكفر . . رغم أن الله أراه رحمته مرات ومرات . . وأزال عنه الكرب المرة تلو المرة . .

وإذا عدنا إلى قصة موسى عليه السلام نجد أن الله سبحانه وتعالى أخذ فرعون بالقول اللين أولا . . فقال الله لموسى وهارون :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

سورة طه الآيتان ٤٣ ، ٤٤

فرعون طغى . . واتخذ نفسه الها فى الأرض يعبد من دون الله . . والله سبحانه وتعالى أرسل له رسولا . . ليهديه إلى صراطه المستقيم . . ويذكره

بالله . . لم يقل لهذا الرسول اذهب . . واقطع رقبة فرعون . . وخذ ملكه . . وأنا سأمكنك من ذلك . . ولم يقل له سأخسف بفرعون وآله الأرض . . وأعطيها لك . . ولكننا نجد هنا أدب الرحمة فى أن الله سبحانه وتعالى يقول . . اذهب لهذا الطاغية الذى نصب نفسه إلها يعبد من دونى . . وقل له قولا لينا . . برفق . . دون أن تهينه . . أو تنهره أمام قومه . . علّ قولك هذا يوقظ فى نفسه الشعور بالذنب . . والإيمان بى فيتذكر ويخشانى . .

لنر كيف يحب الله سبحانه وتعالى عبده حتى العاصى . . ويأخذه باللين والرفق والهوادة . . وهو القادر على أن يبطش به بطشا . . هل هناك رحمة أكثر من هذا . . إن أرحم الرحماء لا يمكن أن تفيض منه هذه الرحمة . . على عاص له . . إلا الله سبحانه وتعالى . . بل ان الله يأمرنا أن نستر على العاصى . . ولا نفضحه . . فإذا وجدنا إنسانا يرتكب معصية . . وشاء قدره أن نعلم بها . . فمن حسن الإيمان أن نسترها عليه . . ولا نفضحه . . لماذا ؟ لأن ستر المعصية قد يفتح أمامه طريق التوبة والندم والرجوع إلى الله . . بينما نشر هذه المعصية واذاعتها قد يجعله يضل عن الطريق . . ويتمادى فيها . . فهو إذا رأى انه عصى الله . . وأن الله ستره . . فربما يفيق إلى نفسه . . ويعود إلى التوبة مرة أخرى . . هذه هى رحمة الله بعباده . . حتى العاصى منهم . . والله لا يريد أن يعذب أحدا . . ماذا يفعل الله بعذابنا . . ولكن الإنسان هو الذى يصر بالمعصية على أن يدخل النار . . ويستكبر على الأرض . ؛ وكلما أعطاه الله من نعم . . زادته طغيانا وكفرا . . وجعلته بدلا من أن يسجد لله شكرا . . ينطلق ليحاربه بنعمه . . ذلك كفر الإنسان . . وتلك رحمة الله .

● فرعون يتكرر

. . نعود بعد ذلك إلى قصة فرعون وموسى . . قال موسى القول اللين لفرعون . . فلم يرتدع . . وزاده القول اللين طغيانا . . وحاول أن يبارز موسى

بالسحرة . . فأبطل الله خداع السحر . . وكان السحرة أول المؤمنين . . وكانت هذه معجزة كافية لأن يؤمن فرعون بعد أن سجد السحرة لرب موسى . . كان فرعون يجب أن يؤمن بأن موسى ليس ساحرا . . ولكنه رسول . . وبدلا من ذلك زادته هذه الآية طغيانا . . فإذا به يأمر بقتل السحرة . . وكلما جاء موسى بآية . . أنكرها . . ثم أمر بتذبيح أولاد قوم موسى . . واستحياء نسائهم . . وبدأ الله سبحانه وتعالى بعد كل الآيات التى أيد بها موسى . . بدأ الله يذكر فرعون بقدرته مباشرة . . بدون رسول . . فسلط على قوم فرعون الدم . . والضفادع . . والقمل . . وفى كل مرة تحدث فيها آية من هذه الآيات التى تحمل العذاب الأصغر . . بدلا من أن يؤمن فرعون . . ويتذكر قدرة الله . . ويتوب إليه . . ويعرف أن الله فعال لما يريد . . يأتى إلى موسى . . ويقول له ادع لنا ربك يزيل عنا هذا ونحن نؤمن . . فيدعو موسى ربه . . فيزيل العذاب . . فيزداد فرعون كفرا . . فتأتى آية أخرى . . تذكر بالأولى وبقدرة الله . . وبأن الله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض . . أى أنه يملك القوة للفعل . . والقدرة على تحقيق ما يريد . . وفرق بين القوة والقدرة . . فأنت قد تملك القدرة . . ولكنك لا تملك القوة لتحقيق ما فى قدرتك . قد تكون تاجرا بارعا . . ولكنك لا تستطيع أن توفر لك مكانا تمارس تجارتك فيه . . وقد تكون مهندسا ممتازا . . ولكنك لا تستطيع أن تأتى بالأشياء اللازمة لتبنى العمارة الضخمة التى تقدر على بنائها . . ولكن الله سبحانه وتعالى يملك الاثنتين معا . . أى أنه يملك كل عناصر الفعل . . فإذا أخذ فرعون بآية من العذاب . . أراد الله أن يذكره به وبقدرته . . عله يتذكر . . فإذا ذهبت الآية قال لن يستطيع أحد أن يأتى بآية أخرى . . وظن أنه قد نجا تماما . . وصور له غروره أن ما يحدث لن يتكرر . . فيذكره الله مرة أخرى . . فيسرع إلى موسى يطلب منه الدعاء فيكشف الله عنه الضر . . فيعود مرة أخرى إلى طغيانه . . هذا هو الاصرار على الكفر . . والاصرار على المعصية . . والاصرار على الكفر والمعصية لا يحبهما الله سبحانه وتعالى . .

وقصة فرعون هذه ليست غريبة عن حياتنا . . فالله سبحانه وتعالى يأتى لكل عبد من عباده الكافرين ليذكره به . . فيتجه بالدعاء إلى الله وقت المحنة . ثم تزول المحنة فينسى . . وهكذا حتى يفتح الله عليه بابا ذا عذاب شديد . . حينئذ يتذكر الله . . ولكن بعد فوات الأوان . . ففرعون حينما كان يغرق فى البحر أعلن إيمانه . . ولكن الوقت كان قد فات . . لأن الله فتح عليه من أبواب الرحمة والتوبة . . وأراه من الآيات . . ما كان يجب أن يجعله مؤمنا . . شديد الإيمان . . ولكنه أصر على الكفر . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يذكرنا بذلك . . وبأن الاصرار ليس من صفات المؤمنين . . ولكنه من صفات العصاة الكافرين . . فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾

سورة آل عمران من الآية ١٣٥

والاستغفار هنا ندم وتوبة على الاثم . . ثم يقول الله سبحانه وتعالى « **ولم يصروا على ما فعلوا** » . . أى أنه نفى عنهم الاصرار على الاثم . .

إذن عمل المؤمن يجب أن يكون باسم الله . . لأن الله هو الذى سخر له الأشياء . . وباسم الله لأنه يريد أن يستعين بقدرة الله . . ومادام كل عمل تعمله . . وفى بالك الله . . فالله يعينك . . ويكون معك . .

وذكرك لله سبحانه وتعالى يجعل القلب يخشى . . والناس لا تمضى فى المعصية . . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يذكرنا انه معنا يسمع ويرى . . ومن هنا فإننى حين أقوم بعمل يؤذى غيرى يقول الله لى لا . . هذا ليس لك . . وهنا تتدخل الشرائع . . ولا تتدخل الشرائع إلا لصالح الإنسان . . فالإنسان يريد فى حياته أن يحصل على كل شىء . . ما يملكه . . وما يملكه غيره . . حينئذ يأتى الله سبحانه وتعالى ليقول له لا . . أنا حميتك بقانونى . . من أن يعتدى غيرك على

ما تملك . . ولقد حميتك من هذا رحمة منى لأنك فرد . . وغيرك كثيرون . . وإذا أبحت الاعتداء على المال فكأنى أبحت للناس كلها الاعتداء على مالك . . وإننى قد أكون حرمت اعتداءك على مال فرد أو اثنين ولكننى منعت الملايين من الاعتداء على ما تملك من مال أو عرض . . أو أى شيء بالنسبة للدنيا . . وأنا حين أفعل ذلك . . أحميك . . أحميك وأحفظ لك مالك وعرضك . . وأمنك . . فاذا اعتدى أحد عليه فأنا اقتص منه وأنا القادر على القصاص . . الفعال لما أريد . .

وهكذا كانت معجزة الخلق من الله سبحانه وتعالى . . رحمة للإنسان . . وفضلا من الله . . كان يقتضى منا الحمد والشكر والطاعة . . وعندما نقول فضلا من الله . . فاعلم أن السموات والأرض . . وما فيهما من رزق ونعم وآيات وخلق من يوم الخلق . . إلى يوم القيامة . . هى فضل من الله . . أى زائد عن حاجته . . لا يحتاج إليه لأن الله غنى عن العالمين . . وهكذا حين يعطينا النعم . . يعطى . . ويعطى . . ويعطى . . لأنه ليس محتاجا أن يبقى شيئا لذاته . . فهو سبحانه وتعالى غنى عن هذا كله . .

معجزة الخلق فيها رحمة . . وفيها نور . . وفيها فضل . . وفيها رضا من الله . . وكل ما نحتاجه هو أن نتأمل هذا كله ابتداء من آدم إلى يومنا هذا . . وإلى ما سيأتى . . لنعرف مدى حب الله سبحانه وتعالى لنا . . ومدى رحمته بنا . . ومدى كفر الإنسان بنعم الله . . ولو قدرنا الله حق قدره لعلمنا أن العمر قصير ، حتى لو خصصناه كله لشكر الله على رحمته . . ولكن الإنسان أحيانا لا يرى وعيناه مفتوحتان . . ولا يسمع وأذناه سليمتان . .

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٣٢٤ / ٩٣
I. S. B. N
977 – 08 – 0177 – 1

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم